

نفحات إيمانية

دلائل عظمت الخالق سبحانه

تأليف الدكتور

راجح عبد الحميد كردي

أستاذ مشارك - العقيدة والفلسفة والدعوة والسيرة

كلية الشريعة - الجامعة الأردنية



نفحات إيمانية

دلائل عظمة الخالق سبحانه

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١١/١٢/٤٣٣٠)

٢١١

كردي، راجع عبد الحميد
نفحات إيمانية / دلائل عظمة الخالق سبحانه / .. عمان: دار
المامون للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.
(١٢٨) ص
ر.أ.: (٢٠١١/١٢/٤٣٣٠).
الواصفات: / الثقافة الإسلامية /

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعثر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق.


دار المأمون للنشر والتوزيع
العمداني - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٨٧٧٧
ص.ب. ٩٢٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoub.com

نفحات إيمانية

دلائل عظمة الخالق سبحانه

تأليف

د. راجع عبد الحميد الكردي
أستاذ مشارك/الحقيدة والفلسفة والدعوة والسيره
كلية الشريعة - الجامعة الأردنية



دارالموقف للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله حمدته ونستعينه ونستغفره ونسئله، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه ورسله، وصفيه من خلقه حينئذ محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه واسبق بسنته وثبت على هديه وجاهد جهاده إلى يوم الدين، وبعد:

فقد بعث الله تعالى أنبياءه ورسله عليهم ليللوا الناس على الله ليوحده ويعبدوه، توحيد ربوبية باستشعار عظمته وإسناد كل شيء إليه خلقاً وتصرفاً، إرادة وتوجيهاً، بدءاً وقعاداً. وتوحيد ألوهية برز كل أمر إليه هدياً وتعبداً، وتقرباً وتسكناً، فيعبدونه وحده لا شريك، بتوحيد عبادته والإخلاص له وبما شرع في مشاعرهم، خوفاً ورجاء، حباً وبغضاً، استعانة وتوكلاً، وفي شعائرهم ونسكهم، صلاة وصوماً وحجاً وبراً، وزكاة وذبحاً وتقرباً، وعادة وإلغاً، ومعبدة وإخوة. وفي شرائعهم وقوانينهم؛ سياسة واقتصاداً، مالاً وعلاقات، وجهاداً وحرباً وسلماً.... وكل هذا قائم على حسن المعرفة لله، وحسن التوجه له كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَاطِلُ﴾ [سورة الروم آية: ٣٠].

ولذلك جعل الله اللازمة المتكررة على السنة أنبيائه ورسله قوله تعالى: ﴿يَقُولُوا آمَنُوا بِاللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِمْ غَيْرُهُ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وأُتار للبشرية طريق معرفته والإيمان به بما أقام لهم من الآيات المنظورة في الأنفس والآفاق ما يلهم على عظمة وجوده لاستشعار عظمة توحيده. ودعاهم بآيات الكتاب الكريم ليفتح عقولهم وأنظارهم وبصائرهم بلطائف بيناته، وإعجاز آياته ما يجعلهم يستشعرون عظمته بإعجاز سورة وآياته ونظمه وبيانه، وعلومه وشرائعه.

ودعاهم إلى توحيده وقد نفحهم بنفحات هديته. فله سبحانه الحمد والمنة على ما أنعم وتفضل، وخلق وهدي.

وأردت أن أثبت شيئاً من نفحات دلائل عظمته بعيداً عن طريق علماء الكلام، وكتب العقائد، في حلقات إذاعية أولاً، ثم مطبوعة ثانياً ليست على طريقة التأليف للكتب المعهودة الخاضعة للمألوف، بل على هيئة نفحات إيمانية في أصول الإيمان وأركانه، عبر الأثير كحلقات، نصحتني بعض الأخوة الأعزاء أن لا تبقى نفثات أثر فتتطاير في الهواء سمعها من سمعها، وفاته سماعها من لم يسمعها، فإن العلم صنيعة والكتابة قيده - كما يقولون - نصحتوني أن أسطرها وأشرها تباعاً. وهي نفثات بعضها من وحي من لئح الله على العبد وأخرى مقروءة ومجموعة من كتب العقائد وكلام الصالحين.

لعل الله تعالى ينفع بها فتقرب بعيداً إلى الله، وترد عاصياً إلى طاعة ربه، وتعمق إيماناً لمسلم، وتذكر غافلاً فينبه. ولذلك فإني أشرها، بل على هيئة نفثات سميتها نفحات إيمانية، يصدر في هذا العدد الأول منها نفحات تتعلق باستشعار عظمة الله وأدلة وجوده وعظمته في النفس والأفاق، في الفطرة والوعي.

تحت عناوين صغيرة، كل عنوان نفثة أو نفحة من هذه النفحات، سائلاً المولى عز وجل أن لا يجرمنا أجرها، وأن ينفع قارئها، وأن لا يخل قارئها علينا بالدعاء إن أعجبته، ومن الاستغفار إن أزعجته.

والله من وراء القصد

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د. راجح عبد الحميد الكردي

أستاذ مشارك/العقيدة والفلسفة والدعوة

كلية الشريعة - الجامعة الأردنية

صويلح/ عمان - الأردن

١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

الإيمان بالله والدعوة لتوحيده

اعتاد المتحلقون عن الإيمان أن يتناولوا أركانه الستة: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بملائكته، والإيمان بكتبه، والإيمان برسله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره من الله عز وجل. وإذا ما تأملنا في هذه الأركان لمجدها متوقعة على الركن الأول وهو الإيمان بالله تعالى، فإن من لا تؤمن بالله تعالى لا يؤمن بسائر الأركان الخمسة الأخرى.

إذ أن إيا من الإيمان بتلك الأركان تابع من الإيمان بالله. ومن هنا كان الحديث عن الإيمان بالله، والدعوة إليه، واليقين به أمراً أساسياً وضرورياً في قضية الإيمان، وهو الفارق بين المسلمين والجاهليين، وبين المؤمنين والكافرين. ولكن الإيمان بالله تعالى ليس مجرد المعرفة النظرية بأن ثمة رباً وراء هذا الكون فحسب، أو قوة وراء هذا الوجود فحسب، فإن هذه المعرفة النظرية قد لا ينكرها أحد، ولربما يعتقد كثير من البشر بوجود رب خالق لهذا الكون وما فيه، ومع ذلك فهم كفار، حتى قال الله تعالى في هذا الصنف منهم ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [نهمان: ٢٥] [انزمر: ٣٨]، ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [نزخرف: ٩].

إذن أين تكمن المشكلة؟ وما الذي يضيق المؤمنين عن الكافرين؟

إنه الإيمان بوحداية الله، وهي أعظم معرفة لله، وأعظم تميز للإيمان بوجود الله؛ لما يترتب على الإيمان بوجود الله الواحد لا شريك له من معرفة صحيحة لله، ومن آثار نفسية ووجدانية، وعملية وسلوكية، وتصورية وقيمية، وعبادية شعورية، وشعائرية وشرائعية، وضيوية وأخروية، تميز المؤمنين الموحدين. عن الكفار

المشركين والملحدين. وهذا الإيمان بالتالي. وهو الإيمان بالتوحيد أو بوحدة الله هو السمة البارزة المميّزة للإسلام عن غيره من الأديان والفلسفات.

وهو العقيدة التي دعا إليها جميع الأنبياء والرسل منذ آدم عليه الصلاة والسلام، وختمت بدعوة الإسلام ليكون الدين الخاتم والرسالة العالمية الخالدة التي تقوم على هذا التوحيد. وتعال معي إلى دعوات هؤلاء الأنبياء والرسل إلى هذه العقيدة، عقيدة التوحيد الداعية الداعية إلى أفراد الله تعالى بالإيمان به وحده وإلى إفراده بالعبادة وحده في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَنَّ إِلَيْهِ اللَّهُ. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأصراف: ٥٩].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأصراف: ٧٣].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأصراف: ٨٥].

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

الإيمان بوجود الله

لنحـن نتحدث عن أهم وجود وعن أول وجود وموجود لم يسبقه وجود، ووجوده لا يشابه وجود، وهو وجود الله سبحانه قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. فهو الأول الذي لا شيء قبله، والآخر الذي لا شيء بعده، والظاهر الذي لا شيء فوقه، والباطن الذي لا شيء دونه.

كان الله تعالى ولم يكن شيء غيره وخلق كل شيء. وسبق أن قلنا: إن وجود الله تعالى لا ينكره عاقل، ولم تكن مشكلة البشرية يوماً في إنكارها وجود رب، ولكن مشكلتها في أنها لا تعرف الرب. ومن ثم فسوم معرفتها للرب ينشأ منها سوء تصورهما لربوبيته وألوهيته، ويفقدن الطريق السوي لمعرفة وعبادته؛ فإن من ساءت معرفته لربه ساءت عبادته له، ولهذا فسّر عبد الله سهل التستري حيث قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ [الذاريات: ٥٦] فقال: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفوني؛ لأن المعرفة الصحيحة تتبعها عبادة حقة صحيحة.

ومع يقيننا بوجود الله وعظمته فلا بأس من أن يسلم المسلم بالأدلة على وجوده ومظاهر عظمته، فإن كل ما سواه دالٌّ على وجوده، وإن وكل ما في سواه من مظاهر دال على صفاته، فالنظر في أدلة وجوده منعش لاستشعار عظمته، ودال على ضرورة حبة وخشيته وحسن مراقبته، وحارس للعقيدة والإيمان، ومبدؤ لشبهات أهل البدع والمترددين والمشككين وأصحاب الأهواء الملحدين.

ولنحـن لا نبتدع شيئاً في الدلالة عليه سبحانه؛ إذ كل شيء خلقه وهذا دالٌّ على عظيم صنع، ودقة علمه، وعلى وجوده رباً واحداً جل شأنه، وتقدمت أسماؤه.

لكن هناك من تحجبهم عن الإيمان به حُجُب الغفلة، وزين المعاصي والشهوات وشكوك الشياطين ووساوسهم، ونيران الهوى وعناد الاستكبار والظلم. ومن هنا فإن الله تبارك وتعالى وجهنا في كتابه العزيز إلى قراءة آياته المثوبة للتفكير فيها دالة على وجوده.

كما وجهنا إلى النظر في النفس والآفاق إلى آيات المجلوة، للنظر فيها، ولنعلم اليقين بوجوده ووحدانيته وعظمته.

كما وجهنا مع حمل الآيات القرآنية، والآيات النفسية والكونية إلى الإحسان في أسلوب عرضها، بالدعوة إلى الإيمان به بالتجاه إثارة الفطرة السليمة وحسن التخاطب معها؛ حكمة وعظمة، وحواراً وحسن مجادلة، ليجلو تلك الفطرة مما ران عليها من رواسب، ولعيديها إلى صوابها؛ فإنها خلقت سليمة مؤمنة بفطرتها، واجتاحتها الشياطين والأهواء من كل صوب، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي يقول الله تعالى: «خلقت صفاء فاحتلتهم الشياطين» فالأدلة القرآنية تعيدها إلى صوابها وحيويتها. ولنقرأ قول الله تعالى في هذه الفطرة المؤمنة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَاسُ أَلْبَسْتُمُ الْقَبِيحَ الْقَابِئَ﴾ [نور: ٣٠] لتسهل علينا الدعوة إلى الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [التحل: ١٢٥].

أدلة على وجوده سبحانه

الأدلة على وجود الله كثيرة جداً، لا نستطيع علماً كما ولا نوعاً ولا كيفاً. فتخيل أن كل ما سوى الله أثر لوجود الله، وهل نستطيع أن نحصي مخلوقات الله في الكون، في سمائه وفي أرضه، في عالم الغيب وفي عالم الشهادة، بأعدادها وأصنافها، وأشكالها وألوانها وأنواعها، وتفاصيلها ودقائقها، وعلاقاتها وارتباطها في إيجادها وفي إعدادها، في أوقاتها وفي أعمارها، في غيبها، في شهودها، فيما نعرفها فيها وفيما لجهله فيها، من أين نبدأ؟ وإلى أين ننتهي؟ وهل لنا أن ننتهي؟.

والقرآن الكريم يدفعنا لنحرك عقولنا ونزيد تأملنا إلى تعميق استشعارنا بوجود الله وعظمته، وإلى النظر في السماء والأرض وإلى ما فيهن ومن فيهن، وإلى ما هو ظاهر منهن، وإلى ما يمكن البحث عن الأسرار فيهن، وإلى نظام العلاقات بين الأشياء والظواهر في الأشياء بما لا يحصيه عدد في التأمل والنظر.

كل ذلك لا أقول ليوجد فينا علماً بوجوده بل ليعمق فينا استشعاراً بعظمة وجوده وعظيم كرمه وجوده.

ويمكن لنا على سبيل المثال وتنظيم الفكر بالمثل: أن نجد هذه الأدلة في القرآن مجموعة من نموذجين:

نموذج اللبيل النفسي أو الفطري أو الوجداني أو التأملاني أو سمه ما شئت.
ونموذج اللبيل الكوني أو الخلقى أو الإبداعى والاختراعى أو سمه ما شئت،
يمثل ذلك ويدل عليه قول ربنا تبارك وتعالى ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكُفِّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فهذان نموذجان يجمعان الأدلة العقلية والشرعية للنظر في وجود الله تعالى، وهما نموذجان في مجال الاستدلال قابلان للنظر العقلي والتأمل الفكري،

والاستبصار القلبي وكل أدوات البحث.

هذان المجالان هما :

أولاً: المجال (النفسي أو الضطرة)

وثانياً: مجال الـكون والـخلق: أي كل ما صدر عليه أمر الخالق بقوله كن فكان. وأدعو نفسي وإياك إلى استشعار نعمة أن الله يلدنا في قوله ﴿سَرَّيْهِمْ﴾ هذه الإراءة وهي القدرة على استعمال أدوات الرؤية بصرأ وبصيرة، عيناً فيها فاعلية النظر، ومرئياً فيه قابلية النظر، وعلاقة بين الرائي والمرئي، والناظر والمنظور، وعقلاً يصنع علاقة معرفية بين النظر والمنظور، بين الأداة والمجال لتنتج ثمرة عقلية تُعلن الإيمان العميق بالخالق سبحانه، أليست هذه النعمة في حد ذاتها دليلاً على وجود الله وعظمته؟ وأليس فقدانها للغافل مصيبة؟ يحمد العبد ربه على نعمة منه الرب عليه بإعمالها وعدم تعطيها؟ فلك الحمد ربنا على ما أنعمت.

ثم ألت تقف على قوله تعالى ﴿سَرَّيْهِمْ﴾ بنون الجمع، وهو سبحانه واحد وهي حتى في لغتها التعبيرية دالة عظمة الذي من نعمة الإراءة فيما خلق بعظمته وعظمة وجوده وعظمة خلقه؟.

ثم ألت تتذوق قوله تعالى ﴿حَقَّ يَتَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ في الاستدلال لا من أجل إيجاد وجود للشعور بوجود الله، فوجوده قبل الدليل على وجوده، وقبل المستدل على وجوده، وقبل وجود النتيجة العقلية بالنظر في وجوده، ولكن الخفاء لا في وجوده وإنما الخفاء الذي يظهر ويثبت هو لهم أي للناظرين لأن عقولهم تلبذت بالحجب عن استشعار عظمته فتلبذت، فالدليل والإراءة لإزالة الحجب وليثبت لهم هم أنه الحق وليس ليظهر الحق فالحق ظاهر قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْغَائِبُ وَهُوَ يَكْلِي شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ [الحديد: ٣].

من الله إلى الكون

ومرة أخرى مع قوله تبارك وتعالى ﴿سَرُّهُمْ ءَاتَيْنَا فِي الْأَقَايِقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٢].

هناك طريقان دالان على عظمة وجود الله: **طريق ما سواه أي مخلوقاته** أي من آثاره الدالة عليه، وهي الأدلة الكونية والنفسية في الإنسان، بمختلف الظواهر من قدرة وإرادة، وحياة وهداية وإبداع وعناية، وتنظيم، ورعاية، وحكمة ووحدة ومعجزات وكرامات، ومنظومات عادية وخوارق، وأفكار وعقائد، وأنظمة وشرائع، وعلم غيب وعلم شهادة، ومفردات من المخلوقات والدقائق، لها خلقه وفيها هداية. وكل هذه يمكن أن نطلق **عليها الطريق الصاعد من الكون إلى الله**، من المخلوق إلى الخالق، من النظر في المخلوق للوصول بالعقل والتفكير والنظر والاستدلال إلى وجود الخالق سبحانه.

وهناك طريق آخر مقابل لهذا الطريق سالكوه أقل، والمتنبهون له أكثر ندرة، مع أنه طريق رائع، باطن في النفس ساكن فيها، هو السر الأعظم في النظر، والطريق الأرقى في الاستدلال وهو **طريق الاستدلال على المخلوق بوجود الخالق مما أسميه طريق الجدل النازل من الله إلى ما سواه** وهو المعبر عنه في قوله تعالى في الآية التي بدأنا بها قبل قليل ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

وأحب أن أبدأ بهذا الطريق وأوجل الطريق الآخر الصاعد، إذ كل الناس مشغول به. يقول رسولنا ﷺ: «كان الله ولم يكن شئ غيرَه ثم خلق الخلق». إذاً قبل أن يكون ثمة موجود كان الله تعالى موجوداً فهو الذي لا شئ قبله. وهو الله تعالى بوجود الأعظم، وأسمائه الحسنی وصفاته العلی، قبل أن يستمد كل مخلوق وجوده

منه، وقبل أن يتصف كل مخلوق بصفة منه، فهو الله سبحانه قبل المخلوق ذاتاً وصفات.

فهو الخالق الذي أعطى من عظمة وجوده كل متصف بالوجود وجوده بعد عدم، وهو العليم الذي أعطى كل متصف بالعلم علمه بعد جهل، وهو القادر الذي أعطى كل شيء قادر قدرته بعد عجز، وهو السميع الذي أعطى كل سامع سمعه بعد صمم، وهو البصير الذي أعطى كل مبصر بصره بعد عمى، وهو الهادي الذي أعطى كل مهتلي هدايته بعد ضلال، وهو الحي الذي أعطى كل حي حياته بعد أن لم يكن، قال تعالى: ﴿هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ مِنِّ مِّنَ الْذَّهْرِ لَمْ يَكُن مِّثْيًا مَّذْكُورًا﴾ (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن طُّفُلَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿١٧﴾ [النسان: ١ - ٣] وهو المتكلم الذي أعطى كل متكلم كلامه بعد بكم، وهو المريد الذي أعطى كل مريد إرادته وخياره بعد حيرة وهكنا.... يجمع ذلك كله قوله تعالى ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَلْقَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥١].

وبهذا فإننا نستدل على ما فينا وبنا وفي الكون كله، من مظاهر وهدايات، ومن دقة صنع وخلقة، ودقة تنظيم وروعة، وضبط وفعالية، نستدل على ذلك كله بالله، فلأنه الله الخالق، لمن مخلوقون، ولأنه الرب فنحن مُنعمون، ولأنه الله الهادي فنحن مهليون ومهتلون، ولأنه الله المتصف بالحياة وبالعلم والسمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام فنحن أحياء ونعلم ونسمع ونبصر ونقدر ونريد ونتكلم ونفكر، ولأنه الله الرب الخالق الأول الآخر الظاهر الباطن، فكل ما سواه على هذه الأحوال والوجودات، والدقة والهداية، والتنظيم إذ لولا الله لما وُجِئنا، ولولا الله لم يكن شيء سوى الله. فهو الشاهد والشهيد على كل ما سواه خلقاً وهداية.

وكل ما في الكون فهو من آثار عظمة الشهيد فلأنه عظيم نشهد عظمة ما في الوجود المخلوق له، ولأنه الرب الخالق نشهد آثاره في عالم الشهادة.

ولهذا فإننا في أعماقنا نستشعر هذا الدليل لأن السر في أعماقنا فنحن كنا بالله، والله كان ولم يكن كونه، فكنا بعد أن كان وخلقنا بعد أن كان ربنا الخالق ولا شيء معه ولا شيء غيره ولم يكن شيء سواه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

الوعي الفطري دليل على وجود الله

جعل الله الإنسان مخلوقاً متميزاً عن سائر مخلوقاته فميزه بالعقل وكلّفه بالإرادة المختارة، وعلمه ما لم يكن يعلم. ولذلك كانت المنّة على هذا الإنسان. بنعمتين مقترنتين: نعمة الخلق، ونعمة العلم. وجعله قادراً على قراءة هاتين النعمتين بعقل يتأمل في ذاته، ويتفكر في مخلوقات الله ويفكر في نفسه، ويقرأ في كتابين مفتوحين، كتاب الآفاق والنفوس، وكتاب الوحي والهدى وهو القرآن. في كلا الكتابين آيات وآيات، كلها دالة على الله ولزوم عبادته، ومع ذلك كانت فطرة هذا الإنسان مميزة عن سائر المخلوقات. إذ جعل في سائر المخلوقات غير المكلفة هداية قائمة في خلقها فخلقت تسبح بحمد الله فيما غرس الله فيها من غريزة كما قال تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا خَلْقًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، بينما جعل للإنسان فطرة تسبح بحمد الله بإرادة واختيار.

وهذه الفطرة أودع الله فيها - بما هي فطرة إنسانية - المادة والروح، والمادة من خلق الله والروح نفحة من الله، أودع فيها إحساساً أو شعوراً فطرياً بوجود الله وبوحدانيته وعظمته، لو تركت هذه الفطرة من غير ترسيب بشي وخارجي عليها، من الرين والشهوات والإفساد والتشويش، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي الله تعالى خلقت خلقي حنفاء فاجتاحتهم الشياطين وقال عليه الصلاة والسلام «إنما يولد المولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

هذا الذي أودعه الله فيه يمكن أن نسميه اللبيل الفطري على وجود الله، فإذا ما تعرضت للتشويش والتشويه، احتاجت للتذكير والعظة والخطاب الحكمة

والمجادلة بالتي هي أحسن، وإلى الحوار مع آدابه، واحتاجت إلى الاستنهاض لازاحة ما تراكم عليها حتى يستخرج الدليل الخارجي الكوني والنفسي ما فيها من السليل الفطري؛ ليعمق لديها الإيمان؛ وكلاهما من الله مصداقاً لقوله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَاطِلُ الْفَيْسُ﴾.

ومن هنا أسألك أخي المستمع: هل تشك لحظة واحدة بوجودك؟ وهل تحتاج إلى من يرشدك أو يقتنعك بأنك موجود؟ ما الذي يملك على اليقين بوجودك؟

الجواب: ليس إلا شعورك الفطري بأنك موجود. إنه وجدانك الذي لا تستطيع مقاومته، إنه إحساس عميق لديك لا يمكنك رده، ولا ينفصل وعيك عن الإحساس بأنك موجود، فكذلك لا ينفصل وعيك عن الإحساس بالحاجة إلى ربك سبحانه، لتشعر بوجوده، ولتتعم بالإحساس بهذا الوعي بالوجود. فالشعور بالحاجة إلى الرب هو أعلى أنواع الأدلة على وجود الله؛ لأنه وعي فطري ليس مفارقاً للوعي بوجود الإنسان.

ومن ثم كانت الحاجة إلى الله في أعماق النفس إحساساً فطرياً لا ينفصل عنها؛ إذ أن في أعماقها حاجة ملحة إلى الإحساس بوجودها فأنه سبحانه هو الذي أعطاك الوجود والإحساس بأنك موجود، والشعور العميق بأنك موجود بالله وأن وجودك وإحساسك بالوجود ليس ناشئاً نشأة ذاتية فيك، فإنك لم تكن موجوداً ولم تكن واعياً على وجودك، فمن الذي منّ عليك بالاستشعار بنعمة الوجود، والحاجة إلى الوعي بالوجود، والحرص على هذا الوجود؟ إنه ليس أنت وإنما هو الله سبحانه الذي يستقر الإيمان الفطري به في أعماق هذه الفطرة.

وبالتالي فإن لوثة الإلحاد أو لوثة إنكار وجود الله لا سند لها من الفطرة، ولا مكان لها من الفطرة الإنسانية، وإنما هي لوثة غريبة على فطرة الإنسان، وشاذة ليس

لها في أعماق الفطرة رصيد ولا وجود، ولا بقاء ولا امتداد بل إن الفطرة لتقاوم هذه اللوثة بقدر استشعارها بوجودها ووعيتها بأهميتها، واعتزازها بالإيمان بربها ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحَفُّذٌ لَّهُ عَسِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

الحاجة إلى الله دالة على وجود الله

أترى من يملك على الله؟ ومن يقنعك بوجوده وعظمته، وأنه رب مشول عن كل ما تحتاجه، وتریده، وأنت تبحث عن هذا الليل؟
فالدليل ليس بعيداً عنك، فإن الإيمان به كما قلنا في أعماق فطرتك وأنت لو استعملت وعيك لم تجد بعيداً عنك، وقيمة وجودك نابعة من قيمة وجوده، وقيمة عبوديتك نابعة من قيمة ألوهيته.

وإذا أردت مزيداً من التوضيح، فإذا غفلت عن وعيك واستبدت بك شهواتك، وجمع بك هواك، وترسب على فطرتك غبار الدنيا وثقله اللحم، وضعف الإرادة، فإنك ستجد نفسك أحياناً، وما أكثر هذه الأحيان لو راقبتها! فأنت تنعم بصحة وعافية، وقوة وشدة، فإذا ما اعتري صحتك مرض، وهذا من عزيمتك بلاء، فتجد نفسك من أعماقك بحاجة ماسة لتناجي رباً يرفع عنك الشدة، ويعيد لك الصحة، ويقوي لك العزيمة، فشئت أو أبيت، استسلمت أو كابرت، فإن لسانك لا يملك لنفسه إلا أن يكون مدفوعاً من أعماق ما وراءه من مستكين الضمير، وعمق الإحساس الداخلي الفطري، يلهج بالقول: يا رب، إنه يدعو إنه يأمل، إنه يناجي، قد تبحث عن الطب فيعجز، وما الطب والدواء إلا مواد لا تملك لنفسها في ذاتها فاعلية المعالجة إلا إذا عمل الله فيها الفاعلية، وإلا إذا اقترن معها بما خلق في جسمك من القابلية، وهو الخالق لك وللفاعلية والقابلية والمرضى والمريض والعلاج.

وكل ذلك لا يكون إلا بالله ومن الله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]
وهو سبحانه الذي يصور هذا الإحساس الفطري بالحاجة إلى الله دالاً على وجود الله.

واسمع قوله سبحانه: ﴿وَلَا مَسَ الْإِنْسَنَ الْفُتْرُ دَعَا لِحِجْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّ كَمَا كَانَ لَوِ بَدَعْنَا إِلَى حُجْرٍ مِّنْهُ كَذَلِكَ نُزِيلُ لِلْمُتَرَفِّينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وهو القائل سبحانه في تصوير الحاجة لهذه الفطرة إلى الله إيماناً فطرياً بوجوده ودليلاً فطرياً على عظمته:

﴿قُلْ مَنْ يُنصِرُكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجِئْنَا مِنْ هَهِئِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [٣٥] قُلِ اللَّهُ يُنصِرُكُمْ فِيهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُنصِرُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤].

وهو القائل سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي يُنصِرُكُمْ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَّهْتُمْ لِيَمِ يَمِينًا وَنَحْنُ وَفِي حَوَائِجِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ مِّنْ عَصِيفٍ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْوَلَدَيْنِ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَهِئِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وهو القائل سبحانه:

﴿أَمِنْ حُجُبِ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَا وَيَكْثِفُ الْشُّوْبَ وَيَجْمَعُكُمْ خُلُقَاءَ الْأَرْضِ أَهْلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

جواب الفطرة / الله الخالق

سجل القرآن الكريم جواب الفطرة الإنسانية لكثير من الناس، حتى من المشركين الذي يهلدون مع الله غيره أو يعبدون معه غيره أو من دونه أو اتخذوا أصناماً يرمون بها إليه، أو عبدوا ملائكة وزعموا أنها بنات الله وزعموا أنهم لم يعبدوها إلا لتقربهم إلى الله زلفى. ولما عبدوا الأوثان وصمموها على هياكل مختلفة، إما صنم كبير ضخيم، أو صنم لذكر إله - بعلى - ولأنثى زوجته - عشتروت - مثلاً، أو عبدوا مظاهر من الطبيعة والكون، فما فعلوا ذلك إلا وهم لا ينكرون وجود رب، ولكنهم لا يعرفون الرب فيرمزون إليه ليقرّبوا صورته منهم، وليذكروه إما من زاوية أنه خالق للإنسان من ذكر وأنثى، وإما لأنه كبير، فيرمزون إليه بشيء عظيم، وإما لأنه غيف فيرمزون إليه بشيء غيف، وإما لأنه مُنعم فيرمزون إليه بمظهر من مظاهر العطاء والخير.

وما قصة دخول الصنم هبل أكبر الأصنام العربية إلى الجزيرة العربية منا بعيد. فقد ذكر الكلبي في كتابه الأصنام أن عربياً واسمه عمرو بن لحي الحارثي جاء من الجزيرة يطلب الشفاء في حمامات ماعين جنوب الأردن، ولما تعافى وعاد ماراً من مدينة البتراء، وهي مدينة مشهورة للعمالق وقد ألان لهم الصخر فصنعوا مدينة عظيمة، ونصبوا حجارة أصناماً رموزاً للعدالة وللإله ولكثير من المعاني، فسأهم عنها فقالوا: هذه آلهتنا نستسقيها فتمطر، ونستطعمها فتمطعم، ونستشفى فيها فتشفى، فتأثر الرجل من حاله وأنه جاء للاستشفاء، فطلب منهم واحداً منها صنماً رمزاً لإله الشفاء فأعطوه، فعاد إلى الجزيرة ووضع الصنم في جوف الكعبة وهي أظهر بقعة، وأقدس مكان للعبادة، وهي أول حادثة كما يقال يدخل فيها ذلك الصنم الكعبة وسمّوه هبل، فجعل الناس يطوفون بالكعبة ونسوا رمزية الصنم للإله مع طول الزمن، فأخذوا يقدسونه ويقولون اعلّ هبل.

وهكذا أساف وثلاثة صنمان صنعا رمزين دالين على جبروت الخالق بسبب غضبه على رجل وامرأة زنيا في الكعبة.

فسخطهما الله فأقام الجاهليون مكانهما صنمين يذكran الناس بجزاء من يقترب المعصية ويغضب الجبار، ونسي الناس بعلمها القصة فطافوا من حول الصنمين اللذين كانا رمزاً ليحل محل الرمزية تقليس الصنمين على أنهما إلهان.

أما لو سئلت أولئك الجاهلين والمشركون من الخالق؟ فإنهم بفطرتهم كانوا يجيبون أنه الله، ومع ذلك كانوا يشركون، فهم كانوا يعترفون بالخالق رباً وأنه يخلق، وأنه يزرق، ولكنهم لم يكونوا يوحّدونه في عبادتهم له، فكانوا يسيئون إلى الوهيته مع اعترافهم بربوبيته واسمع قول الله تعالى فيهم:

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَشَجَرَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرَ لَقُوا اللَّهَ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ زَكَّىٰ بَيْنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنَّى يَدِ الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ مَوْنِهَا لَقُوا اللَّهَ فلي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَقُوا اللَّهَ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

حتى هنا الإنسان الكافر يعترف تماماً إذا ما ألم به ضعف أو مرض أو مصيبة أنه يلجأ إلى الله بفطرتة. وهناك قصص كثيرة تروى أنها ما قاله لنكولن في أحلك الأيام في الحرب الأهلية «بغير معونة من الله الذي هو معي لا أستطيع أن ألجأ وبهذه المعونة لا يمكن أن أخفق»^(١).

وقصة ذلك الطبيب غير المسلم الذي يشس هو ومريضة من وجود دواء له بعد

(١) انظر القصة بتفاصيلها في سعيد حوى: الله جل جلاله، دار القلم، دمشق، بيروت، د. ط، ١٩٧٥ ص ٧٣.

مرضه ثلاث عشر عاماً فنصحته أن يجرب أن يصلي وأن هناك أملاً واحداً بقي هو في السماء، وتوجه ذلك المريض إلى الله فعاده طبيبه بعد أسبوع فوجده قد شفي وتعافى.

وما معنى أن يتجه العبد بالدعاء إلى الله إلا ليؤ؟؟ بالمزيد من الإيمان بعد أن يجيب الله دعاءه.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

الأدلة العقلية على وجود

الله سبحانه

أكرم الله الإنسان بالعقل وميزه على سائر مخلوقاته به، وهذا العقل هو مجموعة عمليات المعرفة لهذا الإنسان من نظر وتفكر وتفكير، وتلدير واستفسار، ومناقشة وتحليل وتعليل. كما خلق سبحانه كل مخلوقاته وفيها قابلية الانكشاف والتسخير لهذا الإنسان العاقل، ليصنع بذلك علاقة إيمانية بعمل هذا العقل وفاعليته وقابلية تلك المخلوقات واستعداداتها للعظام.

فيصل العبد من هذا الكون إلى الله في جدل صاعد من معرفة المخلوق إلى استشعار عظمة الخالق، من النظر في حدوث هذا المخلوق وأن له بداية زمانية، وبجلاً مكانيًا، وهيئة متغيرة، ونظاماً دقيقاً في عمله وتغيراته وتطوراته، وفي أداء وظيفته مما يجعل هذا العقل ينطق بالحق بأن لها سابقاً لهذا الكون قد أعطاه وجوده وهده إلى نظامه، وأنه مسؤول عن حركته وتغيره، وثباته وتطوره.

ولذا كان تعريف موسى لربه حين سأله فرعون عن رب العالمين الذي يدعوه موسى للإيمان به أجابه كما في تعبير القرآن بقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ الَّذِي أَنْعَمَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ ثُمَّ هَدَى ﴿طه: ٥٠﴾.

إذن هناك مجالان كبيران يدلانك على الله سبحانه إذا نظرت فيما خلق: أولهما: الإبداع والصناعة والاختراع والخلق، النظر في الأسباب والعلل، وكل هذه سماها الله تعالى الخلق وهو الإيجاد على غير مثال سبق، فهو الذي أبدع مخلوقاته إبداعاً. وشيئها بعد أن لم تكن شيئاً وأوجد لها بعد أن كانت علماً، وخلقها بعضها من بعض.

وأما المجال الثاني: للنظر: فهو في تنظيم الخالق وهدايته لهذه المخلوقات بحيث إذا نظرت إلى ما فيها من دقة نظام، وانتظام سير، وقيام بوظيفة متقنة، وما يكتنفها من رعاية وعناية، أيقنت أن لها رباً هداها بعد أن خلقها.

وكل الأدلة ووجوه الاستدلال بالعقل وسيلة وفي المخلوقات إنما يقوم على هذين الدليلين الكبيرين، دليل الخلق، ودليل الهداية أو دليل الإبداع أو الاختراع أو الصنع أو الحدوث أو السببية، ودليل النظام أو الهداية أو الرعاية.

وهناك ما لا حصر لها من المخلوقات تجد في كل واحد منها بل في كل جزئية منها، بل في كل ذرة من ذراتها إجراءً لهذين الدليلين على الله سبحانه.

والعقل بما هو موجود لا يمكن أن يقبل أو يصدق المصادفة، أي عدم التعليل وعدم النظر في هذا الكون دليلاً على الله، إذ أن رفض التعليل يعني انعدام عمل العقل، ولا يقبل الإنسان لنفسه أن يفقد هذا العقل إلا إذا كان بمنوناً، والمجنون لا تكليف له، ولا عاسبة له، ولا مسؤولية عليه، أو كان مكابراً جاحداً متناقضاً مع نفسه، مهتراً لنعمة العقل التي من الله بها عليه، وحينئذ يفقد الإنسان معنى وجوده، وقيمة حياته، ومعنى إنسانيته، وهذا الصنف موصوف في قول ربنا سبحانه

﴿هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال سبحانه ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

ووصف أولئك الذين عطلوا أجهزة الاستقبال الفطري فعطلوا عقولهم عن العمل الموصل للإيمان بالله فقال: ﴿إِنَّ سَرَّ أَلْوَابٍ عِنْدَ اللَّهِ إِلَهُكُمْ الْبَرِّ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]. وقال: ﴿أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢].

دليل الحلوث ورفض المصادقة

دليل الحلوث أي حدوث المخلوقات وأنها بدأت في زمان هو دليل الخلق أو الاختراع، أو الإبداع كما يسميه العلماء. ومفهوم الاستدلال بهذا اللبيل على وجود الخالق سبحانه بالإجمال دون الدخول في تفاصيل المخلوقات، أن ما سوى الله سبحانه أي أن هذا العالم بما فيه من مخلوقات ينظر إليها، أولاً في طبيعتها، فهي ليست قديمة أزلية، بلليل واضح، فهي متغيرة، وهي وجدت بعد أن لم تكن، وأصبحت على حال لم تكن لها فمن الذي أعطاها بدايتها والزمانية، ومن الذي أعطاه وجودها بعد أن لم تكن ومن الذي غير حالها من حال إلى حال آخر.

لا يملك أحد أن يزعم ومعه دليل على ما يقول إذا ادعى أنها بنفسها هكذا منذ الأزل دون بداية، ذلك أننا ننظرها فيها نرى تغيرها، فما الذي رجح وجودها على علمها وما الذي أخرجها من العدم إلى الوجود، وما الذي غير حالها وأوصافها، نحن نشاهد هنا التغير أمام أعيننا، لا يمكن أن تصدق عقولنا أنها هكذا كانت منذ الأزل. فلاشك إذن أن ثمة من أعطاه وجودها بعد أن لم تكن، ولاشك أن ثمة من يحكم سيرها وتغيرها، ولاشك أن سبباً وراء هذا الكون رجح الوجود على العدم، ورجح هذه الحالة على تلك، وهذا الوصف على ذلك.

وهل يمكن لإنسان يحترم عقله أن يدعي المصادقة في ذلك، أي أنها خلقت وحلثت وتغيرت، وتنوعت مصادقة بلا قدرة قادر ولا إرادة مريد؟! المصادقة العمياء أمكن أن تكون سبباً للوجود المنبصر؟ مستحيل على العقل أن يصدق ذلك. فلو أن مجادلتي في وجود الله يزعم أن الكون نشأ صدف، ثم لطمته كفاً على وجهه أيغفر لك هذا اللطمة إذا زعمت له أن وقوع تلك اللطمة على وجهه كانت صدف؟ أيعفيك من المسؤولية لو زعمت له ذلك؟!!

فكيف يزعم إذن أن هذا الكون بما فيه من مخلوقات وما فيها من أنظمة وقوانين إنما جاءت مصادفة؟!

هل يصدقك شخص عاقل لو زعمت له أن صندوقاً مليئاً بالحروف المتناثرة دونما ترتيب، قد ألقيتها وإذا هي منتظمة مصفوفة تصنع كتاباً منتظماً في أبواب وفصول ولغة بجملة ألفاظها على هيئة ديوان من الشعر بأبيات شعرية بقوافيها وأوزانها في مختلف مقاصد الشعر من مدح وذم وفخر وغزل وحجاسة وغير ذلك؟!

نقرأ قصة في تاريخ الجدل بين أبي حنيفة وجماعة من الزنادقة لا يؤمنون بالله، وانتهى اليوم بينهم وبينه، ليواصلوا النقاش في اليوم التالي، وتواعدوا على ساعة في الظهر، فتأخر أبو حنيفة في الوصول إليهم، فعائبوه على التأخر فقال لهم معتذراً: لقد قلمت إليكم في الموعد المحدد ولكن حال بيبي وبين الوصول إليكم أنني لبثت طويلاً في انتظار صاحب زورق على شاطئ دجلة لكنني لم أجده، ولما ينست وهممت بالرجوع وإذا بي بالوابع من الحشب تتناثر قادمة بنفسها، وجعلت ينضم بعضها في بعضها وتترتب حتى صارت قارباً حسناً، فركبته ثم جئت إليكم فاعذروني. فقالوا: يا أبا حنيفة تأخرت علينا وتهزأ بعقولنا أيضاً! وهل يمكن لأحد أن يصدق أن الواحاً تأتي بنفسها كما وصفت لتكون زورقاً؟ فقال لهم: هذا ما اجتمعتم لتجادلوني به، فإذا كنتم لا تصلقون أن زورقاً صنع نفسه بنفسه أو جاء هكذا مصادفة فكيف تصدق عقولكم وتريدون مني أن أصدق معكم أن هذا الكون المثقن العجيب جاء هكذا بنفسه مصادفة بلا خالق عظيم؟! فبهت الزنادقة، وبهت الذي كفر. فسبحان القائل ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ ٣٥ أَمْ خُلِقُوا

الْأَسْمَانِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَا يُوَفِّقُونَ ﴿٣٦﴾ [المطهر: ٣٥ - ٣٦].

دليل الخلق

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿٣٦﴾ [الطه: ٣٥ - ٣٦].

يرفض العقل أن تكون المصادفة ورام هذا الكون، وأنه لابد من خالق خلق هذا الكون، له قدرة هي صفة بها يخلق، توجد ويعدم وله صفة إرادة بها اختار مخلوقه ونوعه، وشخصه ولونه، فمن هذا الخالق؟

والإنسان الذي يملك العقل به يفكر، وينوره يهتدي لابد أن يجيب بصدق وموضوعية على السؤال القائل له من الخالق إذن؟ والاحتمالات العقلية لا تخرج عن أن يجيب بصدق بعد أن يطرح العقل احتمالاته:
هل الإنسان خلق نفسه وخلق غيره؟

هل الأقل من هذا الإنسان من المخلوقات من مادة صماء ميتة عمياء أم من حيوان لا يملك مقومات هذا الإنسان وعقله خلق هذا الإنسان وهذا الكون؟

أم أن هناك خالقاً لا يتصف بقدرات هذا المخلوق مادة وحيواناً وإنساناً هو الخالق وأنه لا يخضع لقانون الخلق ولا يتصف بصفات المخلوق من حدوث بعد عدم، ومن تغير من حال إلى حال، ومن خضوع لقانون مادي أو لزم من مملود؟

أما أن يُسلم الإنسان خلقه وسائر المخلوقات إلى مادة عمياء وحيوان دون مستواه، فلا يمكن أن يكون هذا الاحتمال ممكناً أو مقبولاً، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، وفاقد العقل لا يخلق العقل الإنساني. وإن المحتاج لمن يغير حاله من حال إلى حال، وإن الذي يجري عليه الحدوث بعد أن لم يكن، والتغير والوجود بعد العدم لا يمكن أن يكون خالقاً.

وهي أن الخالق هو الله، فقد وصفه القرآن بقوله ﴿لَا يُفْتُونَ﴾ أي أنهم يفقدون فطرتهم وعقلهم وبلبييات عقولهم وإنسانيتهم فهم لا يوقنون. ثم لغت القرآن نظر هذا الإنسان ليفكر بعقله في تفاصيل هذا الخلق بمخلوقات الله فيه، ليجد الإنسان الإجابة التي لا مفر منها وهي أنه لا خالق إلا الله، ولنسمع بعض الآيات في هذا المجال: ﴿تَحْنُ خَلْقَكُمْ فَنَكُلُ نَصِيحُونَ﴾ (٢٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَشْتُونَ (٢٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٢٩) تَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَهُ الْمَوْتِ وَمَا تَحْنُ بِمُسَبِّحِينَ (٣٠) عَلَيَّ أَنْ تَبْلُغَ أَفْسَانُ (٣١) أَفَتَعْلَمُونَ

٦٠) وَلَقَدْ عَهِدْنَا الْأَوَّلَىٰ قَالُوا لَا تَذْكُرُونَ ٦١) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْمِلُونَ ٦٢) مَا أَنتُمْ بَرَعُونَ ٦٣) أَمْ لَكُمْ رِزْقٌ أَمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رِزْقٌ ٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُمَلًا فَطَرْنَاهُ فَنَكَّهْنَاهُ ٦٥) إِنَّا لَنَعْرِضُونَهُ ٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٦٧)
 أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ٦٩) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ٧٠)
 قَالُوا لَا تَشْكُرُونَ ٧١) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ٧٢) مَا أَنتُمْ بِأُنشَاءُهَا شَجَرَتَا أَمْرٍ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ٧٣)
 نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ ﴿ [سورة الواقعة : ٥٧ - ٧٣].

الخالق يُغيّر ولا يتغيّر

وجود الخالق سبحانه حقيقة قبل أن يفكر فيها مفكر، فهو سبحانه كان ولم يكن معه شيء، وخلق كل شيء. وحرى بهذا الإنسان أن يستشعر عظمة هذا الخالق الذي يخلق كل شيء، ويغير كل شيء، ويحرك ما يشاء، ويسكن ما يشاء، ويخلق ما يشاء ويختار. ولهذا فكل متغير لا يصلح أن يكون إلهاً، وكل ما يزعم الكفار من آله مدعاة ومزعومة لا يصلح أن يكون إلهاً، ولا يصمد الكفار إذا ما نوقشوا نقاشاً عقلياً، بسيطاً فضلاً أن يكون عميقاً للنقاش، ولا يملكون حجة ولا برهاناً، بل حتى ظناً مقبولاً من العقل يؤيد ظنهم أو يؤيد وهمهم.

ولنضرب على هذه القضية سياقاً قرآنياً في نقاش إبراهيم عليه السلام لقومه الذين زعموا أن الأفلak آلهة فعبدوها، وكيف أنهم لا يملكون عليها دليلاً من العقل، بل العقل السليم ينقض عقائدهم ويبرهن على فساد معتقداتهم قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ رُبِّهِ إِذْ هَمَّ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ بِالنَّاسِ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ الْمُتَوَقِّينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ عَلَيْهِ الْإِلَهَ قَالَ لَهُمْ كَيْفَ هُمْ فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُرْهَانَهُ فَهَدَاهُ رَبُّهُ فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَنْ تُبَدِّلَنِي مِنْهُ لَعَلَّكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُرْهَانَهُ فَهَدَاهُ رَبُّهُ فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَنْ تُبَدِّلَنِي مِنْهُ لَعَلَّكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

وخلاصة هذا الاستدلال بهذه الآيات أن الخالق هو الذي لا يتغير فإن المتغير لا يصلح أن يكون إلهاً، إذ ثمة هناك من يغيره من حال إلى حال، وكيف تستند المخلوقات في أمرها شأنها إلى من يغيب عنها ويتغير حاله. فإبراهيم عليه السلام يقيم الحجة على قومه، ويشرح معهم بلليل بسيط عقلي مفاده أن ما يزعمونه من

دون الله من أفلاك ويصفونها بالآلهة لا تصلح لأنها متغيرة، وبالتالي هي مخلوقة وليست خالقا. فخرج معهم في الليل وعند بزوغ النجوم سألم سؤال استغراب أو على سبيل الفرض أتبدلون ذلك الكوكب وتزعمون أنه إله انظروا وإذا بهذا الكوكب يختفي، أين إلهكم؟ اختفى. وهل الذي يختفي ويغيب يصلح أن يكون إلهاً؟! فقال: لا أحب الأفلقين: أي لا أصدق ولا أؤمن بإله يغيب ويتغير. ثم تدرج معهم إلى سؤال وافترض أن ثمة القمر الظاهر، إلهكم الذي تؤمنون به وتعبّدونه؟ ثم اختفى القمر وغاب. وأقام عليهم الحجة مرة أخرى بفساد هذا المعتقد الذي يزعم أن القمر إله، وقد غاب وتغير، وبالتالي قال لهم: لا بد من الهداية، وأن الهادي هو ربي الذي يهديني بعقلي إلى أنه هو الذي لا يغيب ولا يتغير، وأنه هو الذي يصلح بحق أن يكون إلهاً، ثم انتهى بهم إلى آخر كوكب ضخم كبير، وقد وضع النهار، وارتفعت الشمس وظهر الكوكب الأكبر في السماء هذا أكبر، فلما غابت الشمس وأقلت وتغير حالها أعلن لهم أنها لا تصلح أن تكون إلهاً، وبالتالي فإن ما زعمتموه من تأليه الفلك وعبادته إنما هو عقيدة باطلة، وأنه لم يبق لنا جميعاً إلا نؤمن بالخالق سبحانه، الرب الذي خلق السموات والأرض، وهو يغيرها ولا يتغير ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ لِي بِرَبِّكَ وَمَا تَدْرِكُونَ﴾ (٧٨) لِي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَاشِعًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿[الأنعام: ٧٨ - ٧٩].

بهذا المنطق القرآني البسيط السهل الممتنع يخاطب القرآن عقل الإنسان، وهو منطق يحرك العقل، وينطلق معه من بديهيات فطرية تتجاوب مع الدليل القرآني في الاستدلال دونما تعقيد فلسفي أو منطقي جاف. ومع ذلك ناقش علماء التوحيد الملحدين والفلاسفة مستنلين إلى القرآن، وناظمين منطقهم بحجج عقلية منطقية تجريدية، سموها دليل الخلدوث ودليل الإمكان فقالوا: العالم حادث وكل حادث لا بد له من محدث. أو العالم ممكن ولا بد له من واجب يرجع الوجود على العدم.

ولا يصح أن يكون هذا المحدث أو المرجع حادثاً أو ممكناً حتى لا تقع في حلقة منطقية باطلة وهي الدوران في فراغ إذ لو افترضنا أن هذا الخالق لاحق جاء بعد المحدث للزم الدور الباطل، وإذا افترضناه سابقاً للحادث وهو مثله حادث وهكذا إلى ما لا نهاية للزم تسلسل باطل، وبقي الحادث أو المخلوق بلا مُحدث أو خالق ضرورة تساوي العلل والمعلولات أي الخالقات والمخلوقات وهو استدلال فيه من الوعورة الأسلوبية المنطقية ما فيه.

دليل النظام

قلنا حينما سأل فرعون موسى عليه السلام عن ربه لم يجبه موسى عن حقيقة الرب وإنما أجابه عن مظاهر عظمة الرب من خلال آثار الرب سبحانه، وكانت تلك الإجابة بمثابة أدلة ظاهرة تجمع كل الأدلة، وتنظم جميع مظاهر الكون الدالة على الله سبحانه، أجابه بقوله كما في كتاب الله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَمَّطَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَكَى﴾ [طه: ٥٠].

وقد تحدثنا بإيجاز عن دليل الخلق، ونحدث الآن عن المسرب الثاني في الاستدلال على الخالق وهو دليل الهداية أو النظام. فإذا كان دليل الخلق أو الحدوث بالنظر إلى وجود المخلوق وحاجته إلى خالق ليوجده بعد عدم. فإن ما في هذا المخلوق من دقة صنعة وانتظام أمر، وهداية وتنظيم وعلاقات وارتباطات وقوانين، وانتظام سنن، وحركة وانضباط، وهيئات وأشكال، وفوائد وخبرات ونسب وتوازن، وأقدار وكيفيات، وكميات، وأعداد، وإعدادات، ونزول وصعود، وضغط وجاذبية، وألوان وأكوان، ومد وجزر وطعوم ونكهات، وحياة وموت... إلى ما لا يحصى من الاعتبارات في كل شيء من ذلك لآية دالة على حاجتها للخالق سبحانه، الذي يخلق ما يشاء ويختار. وإلا فمن أين لتلك المخلوقات كل هذه الدقة في الاعتبارات، فهي لا تملك بذاتها خلق نفسها كما لا تملك الأشياء بذاتها خلق اعتباراتها.

تلك الاعتبارات الموجودة في هذه المخلوقات التي لا يحصيها عد، ولا يملك عقل بشري أن يدعي أنه استوعب شيئاً منها فضلاً عن كثير منها فضلاً عن أسرارها وشيء منها أو أسرارها كلها، بما يجعل لهذا الكون رونقاً رائعاً وعملاً

دقيقاً منتظماً وأدواراً متكاملة متناسقة، مرت عليها ملايين السنوات، وما زالت تؤدي أدوارها وتقوم بوظائفها بمنتهى الدقة في الوصول إلى أهداف خلقها، تسبح بحمد ربها، وتعلن عظمة خالقها سبحانه، وتقبل التسخير من هذا الإنسان ليقوم بدوره ووظيفته (هو الذي سخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً منه). وأودع في هذا الإنسان الفاعلية على التسخير كما أودع فيها القابلية والليونة لهذا التسخير، وإنه كما يقول المبدائي رحمه الله «إن عقولنا متى لاحظت مركباً على وجه الإثقان والحكمة، فإنها لا شك ترفض رفضاً قطعياً أن يكون ترتيبه قد جاء على طريق المصادفة. لأن صورة الإثقان على سبيل المصادفة في المركبات ذات الأعداد الكبيرة من المستحيلات في مألوف العقلاء كما أنها من المستحيلات في نظر الرياضيين (انظر عبد الرحمن حسن حبكة المبدائي: أسس العقيدة ١٤٧-١٤٨).

وقد لفت القرآن أنظار الإنسان ليفكر بعقله في هذا الانتظام في المخلوقات في ميادين متعددة، ليشهد هذا العقل هذه الموجات من الدقة في النظام الدال على وجود الله وعلى عظمته، فيؤمن بالله الخالق ويسبح بحمده ويعبده حق العبادة.

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مَجْمَلُ الْأَرْضِ مِهْنًا ۝١ وَأَلْبَسَ الْأُتَادَا ۝٢ وَخَلَقْنَا زَوْجًا ۝٣ وَجَعَلْنَا قَوْتَكُمْ سَبَا ۝٤ وَجَعَلْنَا الْإِلَّيَ يَأْسًا ۝٥ وَجَعَلْنَا الْفَجَارَ مَعَاك ۝٦ وَبَيْنَا فَرْقًا سَبَا ۝٧ وَجَعَلْنَا بَرَكًا وَهَاجًا ۝٨ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝٩ نَخْرُجُ بِهِ حَبًّا وَنَبَا ۝١٠ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝﴾ [النبا: ١-١٦].

وقال تعالى: ﴿مُبَارَكٌ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝١ وَأَيُّهُمْ أَلِيلٌ نَسُخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝٢ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْشُونِ الْقَدِيرِ ۝٤ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْإِيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٥﴾

﴿وَمَا يَكُنْ لَكُمْ أَلَّا تَحِلَّا دُرِّيَّتَهُمْ فِي الْغُلَاظِ الْمَشْهُورِ ۝ وَيَعْلَمَنَّ لَكُمْ يَوْمَ تَبْلُغُونَ مَا رَزَقْتُمْ﴾
[يس: ٣٦-٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَزَقْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا فِيهَا رُؤُوسَ جِبَالٍ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَبَاتٍ ۝ وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عِبْدٍ مُبِينٍ ۝ وَرَزَقْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَايَعْتُو لَهَا طَلْعَ نَضِيدٍ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدًا بَيْنَ يَدَيْكَ كَذَلِكَ الْفُرُوجُ﴾ [ق: ٦-١١].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝ فَإِنَّ لِكُلِّ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُعَلِّمُوا لِمَنِ يُشْفِقُونَ مِنْ بُلْغِيهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمْرُ نَسِئًا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ ۝ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأعنَابِ تُنْجِدُونَ مِنْهُ شَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَأَوْحَى رَبُّهُ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٥-٦٩].

العقل والحس والدلالة على الله تعالى

إن الله سبحانه كرم هذا الإنسان بالعقل. والتفكير مظهر من مظاهر العقل، والحس باب ومدخل تدخل منه الحسوسات بالإدراك الحسي إلى العقل ليُنضج هذه المدركات الحسية. وبالتالي فالعقل هو الذي يدل والذي على الحسوسات ومدى صدقها؛ فقد تخدع الحواس صاحبها، فإذا نظرت إلى السراب البعيد في يوم حار ظنته ماء، فإذا اقتربت منه وزال خداع البصر لم تجد ذلك الماء المتوهم، وإذا نظرت إلى مروحة كهربائية من قريب ولونها أزرق مثلاً، فإذا ما شغلتها ودارت فراشتها بسرعة وجدت لونها قد اختلف وأصبح لونها أبيضاً، فما الحقيقة الحسية الصادقة؟ لاشك أن حركتها خدعت إحساسك بلونها. وإذا أخذت مسطرة مستقيمة، ووضعت جزءاً منها في سائل وجزءها الآخر خارج ذلك السائل خدعك البصر فتجعلها منكسرة وليست مستقيمة.

ولهذا فلا يمكن للحقائق أن تعرف بيقين إلا بالعقل، ولهذا لا يمكن للإنسان عاقل يطلب منك أن تثبت له خالقاً عن طريق الحس لينظر إليه ويراه، فالرب ليس مادة يحيط بها إحساس رغم ضعف هذا الإحساس ومحدوديته وأوهامه، ولا يمكن للعقل الذي يدخل إليه المدرك الحسي أن يحيط به، فالعقل مخلوق لا يحيط بالخالق. قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ومن هنا فقد اعتمد الخالق العقل ليدل العبد على الله، وإذا فقد هذا العقل لم يعد الإنسان مطالباً ولا مكلفاً بالخطاب؛ لأن هذا الإنسان لم يعد مؤهلاً، إذ لم يعد لديه القدرة على العلم وبغير العلم يكون الجهل، ولا يمكن أن يكون الجهل طريقاً إلى معرفة الله سبحانه، ولهذا فقد طالّب القرآن الذين يكفرون بالله سبحانه بأية إثارة من علم على ما يزعمون، وحقيقة الأمر أنهم ليس لديهم علم يستدلون إليه

في دعوامهم مما يظلم زعمهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادْنَاهُ أَنْ أَنْزِلَ سُلْطَانًا مِنْ سَمَوَاتِنَا أَنْزَلْنَاهُ فِي سَكُونٍ أَنْتُمْ فِي الْمَسْكُونَةِ أَنْتُمْ حَكَامٌ﴾ [الأنعام: ٦١] ويقول سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الحج: ٨].

ولقد وصل بهم الجهل والاستكبار إلى أن يطلبوا أن يروا الله تعالى بحواسهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا تَوَلَّوْا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ أَلْمَاحُظَةٌ أَوْ فَرِحُوا بِرِجْسٍ لَقَدِ اسْتَغْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

ووصل بهم الانحراف إلى ما لا يعقل ﴿وَقَالَ قَرْنُونَ لِيُفْضِلْ بَيْنَنَا أَنْ يَكُنْ لِي سَتْرٌ عَلَيَّ أَنْ يَبْدُوَ الْأَشْيَاءَ ۖ أَتَسْتَبْ ۖ أَتَسْتَبْ أَتَسْتَبْ فَأُطْلِعَ إِلَيَّ لَأَكْفُرَنَّ وَلَئِنْ لَا أَكْفُرَنَّ فَأُطْلِعَ إِلَيَّ لَأَكْفُرَنَّ وَلَئِنْ لَا أَكْفُرَنَّ فَأُطْلِعَ إِلَيَّ لَأَكْفُرَنَّ وَلَئِنْ لَا أَكْفُرَنَّ فَأُطْلِعَ إِلَيَّ لَأَكْفُرَنَّ﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧].

وقد صرحوا بأنهم يريدون أن يروا الله جهرة ﴿فَقَالُوا أَلَمْ نَرَ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الضُّلُوعُ يَطْلِمُهُمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وبالتالي فإن أولئك الجهلة الأغبياء يريدون إنكار وجود الله بناء على أنهم لا يرونه!! وهي مكابرة أبها مكابرة. وجهل أبها جهل، وجدال بغير علم ولا عقل يحترم نفسه، وهو كبر واستكبار؛ لأنهم في حقيقة أعماقهم وحقيقة فطرتهم يعرفون أن الله موجود، وأنه خالق، وأنه ليس بمادة ولا بمحسوس، فكم من الأشياء يعترفون بها ويوقنون بوجودها ولا تراها أعينهم، ولا تعانها حواسهم، فما معنى هنا أن يشترطوا رؤية الله بأبصارهم وحواسهم حتى يؤمنوا به؟! ولقد اشتهر على

الألسنة والقصص قصة المعلم الشيوعي الذي ينكر وجود الله لأن حواسه لا تشاهده، ويريد أن يدخل الإلحاد في نفوس طلبته بأسلوب منطقي سخيف، فيسأل تلامذته: هل تروى الباب؟ فيجيبون: نعم، فيقول لهم إنه إذن موجود. هل ترون الشباك؟ فيجيبون: نعم، فيعلق إذن هو موجود. هل ترون السبورة؟ فيجيبون نعم. فيعلق إذن هي موجودة. ثم ينتهي به الحقد والجهل والسوء فيسألهم: هل ترون الله؟ فيجيبون لا. فيعلق إذن فالله غير موجود. ويظن أنه قد انتصر بإلحاده وأدخله في نفوس تلاميذه. فيستأذنه على الفور تلميذ لجيب، فطرته تنطق بالحق وينطق مشابه لمنطق الأستاذ، يستأذنه أن يسأل زملاءه التلاميذ، فيسمح له، فيسأل التلميذ زملاءه: هل ترون الباب؟ فيجيبون: نعم. فيعلق إذن هو موجود. هل ترون الطاولة؟ فيجيبون: نعم. فيعلق إنها إذن موجودة. ثم يسألهم سؤالاً ختامياً وبأعلى صوته هل ترون عقل أستاذنا، فيجيبون لا. فيعلق التلميذ منتصراً بحقه على باطل أستاذه: إذن فعقل أستاذنا غير موجود. فهت الذي كفر

وما أجمل ما يعلق به الشيخ سعيد حوى رحمه الله على هذه القضية بقوله: «إن التصور الخاطئ لطريق معرفة الله قلباً وحديثاً من أكبر العوامل التي أبعدت كثيراً من الناس عن طريق الإيمان الصحيح بالله، مع أن مثل هذا التصور خطأ وخاطئ بالبداهة؟ لأن العقل ببدايته يحكم أن الله خالق المادة ليس بمادة، لأن المادة لا تخلق مادة، وإذا كان منتهى إدراك الحواس المادة المحسوسة فقط فلن يكون الله محل إدراكها»^(١).

(١) سعيد حوى: الله جل جلاله، ص ١٠-١١.

الأدلة العلمية على وجود الله

تحدثنا في ما مضى عن دليلين كبيرين ينظمان الفكر البشري على وجود الله، دليل الخلق ودليل النظام الواردان في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَلْقَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾. وعرضناهما بمنطق عقلي استدلالى. ولتسهيل فهمهما نقدم مزيداً من الأدلة التفصيلية في استعراض بعض عناصر الموجودات فيما وصل العلم البشري في النظر فيها، واكتشاف شيء يسير من بعض حقائقها، وكيف لهذه المخلوقات وما فيها من دلائل عظمة الله، وآثار صنعه وإتقانه وإيجاده لها بعد عدم، وأنها لا يمكن أن تكون ما فيها من مظاهر وقوانين دقيقة ناشئة من صدفة، أو من ذاتها، بل لابد لها من خالق عظيم سبحانه، أودع فيها حالة الوجود بعد العدم، والدقة والانتظام والغاية وأنها تنطق بلسان حالها دالة على الله، وتسبح بحمده كما يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْسِجُ بَاطِنًا، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد تناقلت كتب العقائد المعاصرة هذه الأقوال لعلماء كونيون في الطبيعة وفي الكيمياء والفيزياء والفضاء والفلك، والكهرباء والمغناطيسية والرياضيات، وسائر العلوم البحتة.

بل لقد آمن بالله كثير من العلماء الغربيين وقد كانوا ملحدين، ولم يكونوا منحازين إلى دائرة الإيمان أولاً، ولكنهم من خلال ما توصلوا إليه من حقائق علمية بحتة، لم يملكوا إلا أن تعترف عقولهم وقوانين علومهم بأن وراء كل هذا الكون إلهاً أو رباً خالقاً أعطى كل شيء وجوده، وهدهد ونظمه، وهو المسؤول عن حركته وانتظامه وقيامه بوظائفه ولقد كان كتاب الله «يتجلى في عصر العلم» وقد ألفه لخبّة من علماء الغرب وترجم إلى العربية. وكتاب كريستي موريسون «العلم يدعو إلى

الإيمان» وقد ترجمه محمود صالح الفلكي إلى العربية، ونقل عنها من الكتب الأولى في هذا الباب، وقد رجع لها المرحوم الشيخ محمد الغزالي في كتابه «عقيدة المسلم» والمرحوم الشيخ سعيد حوا في كتابه «الله جلّ جلاله» وعبد الرزاق نوفل في كتابه «القرآن والعلم الحديث» والشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه «الأدلة المادية على وجود الله»، وابن خليفة عليوى في كتابه «سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية»، حتى أصبح نقل هذه الأدلة العلمية شائعاً لكل مستدل، وعلى لسان كل دارس. وسأقتل شيئاً من تلك الأدلة ومن ذلك^(١) (هامش).

يقول رئيس قسم الفيزياء في معهد باستور ورئيس قسم الفلسفة في جامعة السوربون في فرنسا في كتابه «مصير البشرية»: «إن أحد وجوه النجاح العظيمة التي حققها العلم الحديث ربط قانون «كارنوت - كلوزيوس» ويدعى أيضاً بالقانون الثاني في الترموديناميك الذي يعتبر مفتاح فهمنا للمادة غير الحية، فقد أثبت العالم الفيزيائي بولتزمان أن التصور غير الحتمي وغير القابل للانعكاس الذي يفرضه هذا القانون يوافق تصوراً لمحو حالات أكثر وأكثر احتمالاً تنصف بازدياد التناظر وتوازن القدرة، وهكذا فإن الكون يميل لمحو التوازن حتى تزول جميع التناظرات الموجودة في الوقت الحاضر وتقف جميع الحركات ويسود الظلام التام»^(٢).

إذاً فمن المسؤول عن عدم الوصول إلى هذا الظلام التام إنه الله سبحانه.

وقد حاول العالم إدوارد لوزكيل شرح هذا القانون^(٣) وكيف يثبت أن لهذا الكون بداية وأنه خالقاً عظيماً هو الذي أعطاه بدايته وأن من يزعم أن هذا الكون

(١) للاستزادة من هذه الكتب، راجعها ففيها نقولات علمية كثيرة، اقتبست بعضاً منها بما يناسب المقام.

(٢) سعيد حوى: الله جلّ جلاله، ص ٢٢.

(٣) المرجع السابق.

موجود منذ الأزل بنفسه دون الحاجة إلى خالق إنما هو واهم وخطيء ومتصادم مع العلم وحقائقه. وذلك أن العلم يثبت أن ثمة انتقالاً حرارياً مستمراً من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، وليس العكس. ويعني هذا على مدار هذا الزمان السحيق في القدم فمن المفروض بحسب تطبيق هذا القانون الحراري اليقيني أنه يتجه الكون إلى حالة من التوازن التام أو التساوي التام في درجة الحرارة حتى تصل إلى الصفر المطلق؛ وحيث لا يكون هنالك أية عملية كيميائية أو طبيعية، وبالتالي تنتهي الحياة من كل الأشياء الحية في هذا الكون، لأن الطاقة قد استهلكت وتوقف كل نشاط في هذا الكون. ولكن الحقيقة الماثلة أمامنا أن الحياة مستمرة في هذا الكون وأن الانتقال الحراري مستمر، إذن من أين تأتي هذه الطاقة؟ ومن الذي يزود المادة بهذه الحرارة حتى لا تنعدم الحياة؟ لا يمكن أن تكون المادة نفسها تزود نفسها بهذه الطاقة، إذن هنالك خالق ليس مادياً هو الذي يزود المادة بهذه الطاقة أصلاً، وهو سبحانه الذي يزود الكون بهذه الطاقة لتتوهج الشمس، وتزود الكون بحرارة مستمرة، فهو خالق أولاً، وهو يخلق في كل لحظة لأن الانتقال للحرارة من الأجسام الحارة إلى الباردة تقتضي التزويد المستمر لمصادر الحرارة بالطاقة أو المادة المنصهرة للتزويد بالطاقة.

وهنا أريد أن ألقت النظر إلى أن الله سبحانه ليس مجرد رب خلق، وانتهى الأمر بل هو خالق ويخلق وباستمرار؛ فإن سبحانه خالق قادر وباستمرار، وليس الخلق لحظة مضت، فكما هو خالق دائماً والخلق يتجدد فلا بد أن نؤمن به ونستشعر عظمته، وأن يتجدد هذا الإيمان في نفوسنا وهذا الاستشعار بعظمته سبحانه؛ فلنعبده يتجدد وباستمرار.

فالإيمان به خالقاً ليس إيماناً جامداً «ستاتيكياً» وإنما هو إيمان حيوي «ديناميكي»؛ فليس الخلق صنعة آلة وانتهت علاقة المصنوع بالصانع، بل إنه سبحانه في كل لحظة تكون علاقته بمخلوقاته فهي تجري قوانينها وحياتها بأمره وحفظه؛

فكما لا يغيب الخالق عن مخلوقاته قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فلا بد للمؤمن أن لا يغفل قلبه عن استشعار عظمة خالقه، واستشعار القيام بعبادته.

الأدلة العلمية على وجود الله

الذرة والشمس

وهذا دليل من قوانين الحركة الإلكترونية للذرة، فمعلوم علمياً أن الكون مركب من عناصر وأن العناصر مكونة من ذرات، فالذرة هي أصغر شيء في المادة، وأن كل ذرة مؤلفة من شحنات كهربائية، سالبة وموجبة ومتعادلة، تسمى السالبة منها إلكترونات والموجبة منها بروتونات والمتوازنة أو المتعادلة نيوترونات، وأن الذرة لها مركز أو نواة مكونة من البروتونات الموجبة والنيوترونات المتعادلة، وأن الإلكترونات تشكل حالة تدور حول مركز النواة وهي أشبه بالكوكب السيار للذرة، وأنها تدور بسرعة هائلة وبحركة دائرية إهليلجية^(١) أي ليست دائرية تماماً، ولولا دوران الإلكترونات حول مركز الذرة لكل عنصر وبسرعة كبيرة لجذبت البروتونات الموجبة الإلكترونات السالبة نحو نواة الذرة، وانعلمت المسافة بين نواة الذرة وكوكبها الذي يدور حولها.

وحينئذ حصل هذا أو توقفت حركة الإلكترونات في ذرات المادة في كل عناصر الكون لأصبح جرم الكرة الأرضية بكاملها بحجم كرة البلاستيك الصغيرة التي نلعب بها التنس أو بحجم بيضة دجاجة صغيرة. إذن من الذي أعطى الإلكترونات حركتها الدائرية من حول النواة؟ ومن الذي جعل هذا البعد بين الإلكترونات الدائرة والنواة؟ والتي يقول العلم إن هذا البعد بين النواة والإلكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة الدائرة حولها تقريباً. ومن الذي جعل هذه الحركة الدائرة مستمرة؟ ومن الذي ضبط سرعة هذه الحركة، حتى لا تتسع المسافة بين الإلكترونات والنواة فيتسع الكون أو تضيق فيضيق الكون؟ ثم إن الحركة لا بد لها من زمان بدأت فيه، وهذه البداية هي بداية وجود ذرة المادة أي

(١) المرجع السابق ص ٢٤.

وجود المادة نفسها.

ولا يمكن أن يكون ذلك كله من هذه الذرة نفسها، بل لابد من خالق خلقها، ونظمها، وقسمها، وأعطاه خصائصها من شحنة سالبة إلى موجبة إلى متوازنة، فضلاً عن أن لكل عنصر من العناصر عدداً ذرياً ووزناً ذرياً يختلف عن غيره من العناصر فهو سبحانه: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَلْقَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

ثم فلنتنظر إلى هذه الشمس التي تزود الكون بطاقة مستمرة، فمن أين تأتي هذه الشمس بطاقة، ولماذا لم تنفذ طاقتها وتنقص وتهمد؟ وكيف تستمر بتقليد هذه الطاقة وبانتظام لو نقصت طاقتها أو انتهت؟ وكيف للحياة أن تستمر بدون هذه الطاقة؟ والشمس إنما هي التي نعرفها ولحن نعيش في الأرض، والأرض تقع في مدارها وثمة شمس كثيرة لا يعلم عددها إلا الله، ولقد وصلت طاقة من أحد هذه الشمس وهو نجم (السماك الرامح) في القرن الماضي في ١٩٣٣ فكان شعاع واحد منه فقط كفيلاً بطاقته المتولدة منه أن يضيء معرض شيكاغو بأمريكا^(١). ترى من الذي يحدد المادة المنصهرة داخل هذه الشمس وسائر الشمس لتتولد منها هذه الطاقة الهائلة والتي يفقد في كل منها أوزان من هذه المواد؟ إنه مما لا شك فيه أن رباً أو إلهاً خالقاً هو الذي أعطى هذه المادة وجودها، وقابليتها للانصهار والتحول إلى طاقة، وهو الذي يعوض النقص فيها باستمرار، وإلا فقدت نفسها ودمر العالم وانتهت الحياة. فسبحان الخالق الذي جعل الشمس آية من آياته والقائل:

﴿وَأَنشَأْنِي وَمَنْحَنِي﴾ [الشمس: ١] و﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمَا وَهَاجًا﴾ [النبا: ١٣] و﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٥٤] و﴿لَا الشَّمْسُ بِأَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ بِأَنْ تُلَاقِيَ النَّهَارَ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

(١) المرجع السابق ص ٢٦.

الأدلة العلمية على وجود الله

دقة الخلق

الناظر إلى مفردات هذا الكون وما فيه من علاقات بين الأشياء يمكن أن يسأل نفسه لم هذه الأشياء في هذا الزمن دون زمن آخر؟ ولماذا لكل منها صفة وليست صفة أخرى غيرها؟ ولماذا لها مقدار معين ومحدد وليس لها مقدار آخر من ملايين الاحتمالات الأخرى؟ كل ذلك لأن إرادة حكيمة ورأى خلقها من علم وثيق ووراء اتصافها بهذه الصفات، ولو اختلفت صفاتها ومقاديرها وعلاقاتها لاختل نظام الكون كله ولم تكن هذه الحياة على هذا الوضع المرتب والمنظم ودقة.

ويذكر القرآن الكريم في آياته ليعمل الإنسان عقله وهو يشاهد هذا الكون وما فيه من دقة دالة على الخالق عظيم يقول تعالى ﴿سُرُّهُمْ ءِيتَانَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكُفَّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] وينبه الناس ليوفظ فطرهم، وليعملوا عقولهم يقول سبحانه ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى الْأَنْعَامِ كَيْفَ نُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ إِلَّا مَن قَوْلٍ وَكَفَّرَ ﴿١٣﴾ فَعَذَّبَهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿١٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِلَيْنَا جِسَابُهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [سورة النعام: ١٧ - ٣٦].

ولنتظر في بعض ما في هذه المخلوقات من صفات وعلاقات وتقدير دالة على عظمة خالقها سبحانه، وأنها لا يمكن أن تكون من غير خالق أرادها على هذه الأوضاع، وبهذه الصفات، وعلى هذا التقدير مصداقاً لقوله سبحانه ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فانظر إلى قوله سبحانه وتعالى إن شاء الله تعالى في الرزق من واقع الأرض

لطعام هذا الإنسان.

وتخيل لو لم تتحد ذرات الكلور مع الصوديوم لما كان ثمة ملح ولو لم يكن ملح لم تكن حياة. وانظر إلى الهواء وهو من عناصر أو غازات مختلطة بدقة متناهية في الكون، بحيث لو اختلفت هذه النسبة المقدرة من خالقها لاختل الكون. ونسبة الأوكسجين مثلاً ٢١٪ فلو زادت في الكون لتصبح ٥٠٪ لاحترق كل شيء على وجه هذه الأرض. ولو نقصت إلى ١٠٪ لاختنق الكثير من المخلوقات وانتهت الحياة على وجه الأرض^(١).

ولهذا فمن حكمة الله عز وجل أن يحافظ على هذه النسبة الضرورية للحياة فثمة مصانع للأوكسجين في النهار عبر عملية التمثيل الضوئي للنبات في ضوء أشعة الشمس فحاجة المخلوقات في النهار للأوكسجين أكثر منها في الليل نظراً للنشاط الحيواني في النهار، وفي الليل تكون عملية معاكسة تماماً لعملية النبات فيقوم بعملية التنح لتوليد ثاني أكسيد الكربون من أجل الحفاظ على النسبة بمعادلة بين الزائد منه من تصنيع النهار لتستهلك في الليل، ويعود التوازن ويقول العلماء: لو أن الشمس نقص إشعاعها إلى النصف لتجمد كل حي، ولو زاد إشعاعها فتضاعف لاحترق كل شيء. ويقولون: لو أن قشرة الأرض الحالية أسمك مما هي عليه الآن بعشرات قليلة من السنتيمترات لامتصت كل ما في الأرض من الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون ولهلك كل شيء فيه حياة، بل لم تكن له حياة إطلاقاً.

ولو كان القمر المحدد بُعدُه عنا بدقة حالياً لو ابتعد عنا عشرين ألف ميل لكانت قوة المد في مياه المحيطات بحيث يُغرق وجه الأرض كلها مرتين في اليوم،

(١) سعيد حوى: الله جل جلاله، ص ٤٠.

ولخطم الجبال المثبتة للأرض^(١). وهذا كله ينبهنا إلى خطورة اعتناء الإنسان على البيئة وعلى صنعة الخالق سبحانه، بما يسمى بالاحتباس الحراري الذي يهدد مناخ الأرض ومخلوقاتها، وبهنا نقلّر دقة الخلق في الكون وعظمة التقدير الرباني فيه دالاً على وجود الله وعظمته كما يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الأنعام: ٤٩].

الأدلة العلمية على وجود الله

الشمس والقمر

■ يثبت العلم بل ويدل على عظمة الخالق سبحانه ودقة تنظيمه للكون، فالكون فيه ما لا حصر له من الآيات على وجود الله وعظمته، يقول العلم: لو كان محور الأرض معتدلاً بدل أن يكون مائلاً بمقدار ٢٣ درجة مع سكون الأرض؛ لتجمعت قطرات المياه المتبخرة من المحيطات والبحار ونزلت في مكانين محدودين في الشمال والجنوب، وكونت قارات متجمدة بحيث يصبح الصيف في مناطق دائماً إلى الأبد، وفي المناطق الأخرى شتاءً إلى الأبد، ولهلك الناس والحياة والأحياء.

■ يقول العلم إن كوكب عطارد لا يدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس، وبالتالي فقسم منه المقابل للشمس نهار دائم، والوجه الآخر ليل دائم، فلماذا جعل الله تعالى الأرض تدور حول محورها وتدور حول الشمس؛ فمن دوراتها حول محورها بالتالي تتعرض لطلوع الشمس خلال أربع وعشرين ساعة، بحيث يكون في كل أرجائها نهار يتبعه ليل، ومن دوراتها حول الشمس تشكل الفصول الأربعة: الشتاء والربيع والصيف والخريف، وهكذا فهذان الدورانان يجعلان الحياة على وجه الأرض إذ لو لم يكن هذا هلكت الحياة والأحياء. فمن الذي أحكم هذه القوانين من الحركة والدوران ويمتص الدقة؟ إنه الله سبحانه.

■ وتعال إلى حكمة الله البالغة في دوران الشمس حول نفسها، ودوران الأرض حول نفسها ودوراتها حول الشمس، ودوران القمر حول الأرض، وإلى التقدير الدقيق العظيم لسرعة دوران كل من الشمس والأرض والقمر مما يولد الليل

والنهار والفصول الأربعة، وما يساعدنا بلقمة الحساب للزمن في الأيام والأشهر والسنوات الشمسية والقمرية، وما يربط الله تعالى بتلك السنوات والأشهر أنظمة دقيقة لعبادتنا من صلاة وصيام وحج، وما يتجلى فيها من حكم حياتية وكونية واجتماعية وإنسانية وما لا يحصى من الحكم. فمن الذي أحكم هذا الخلق وأثقنته، وصنعه ونظمه، وحافظ عليه ليؤدي دوره ؟ إنه لاشك الخالق العظيم سبحانه قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٥٥ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ٥٦ لَا الشَّمْسُ يَنْتَهِىٰ لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَلْتَمِلُ سَائِقَ الْبَنَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: ٣٨ - ٤٠].

واسمع ما يقول علماء الفلك من الحقائق حتى توقن بعظمة الخالق عن هذا التقدير العظيم من العزيز العليم في سرعة حركة الشمس والأرض والقمر حتى يحصل هذا التقدير، ويتنظم أمر الحياة بهذا النظام الدقيق لتلك المخلوقات في دوراتها وحركتها^(١).

يقول العلماء: الشمس تسير عبر المجرة بسرعة ٢٤٠ كم/ الثانية الواحدة، وتتم دورتها حول محاور المجرة فيما يعرف بلدرب الثبانة في مدة قدرها (٢٠٠ مليون سنة) وعند تمام الدورة تغير المجموعة الشمسية مواقعها فيصبح البر محراً والبحر برأ، ولعل ذلك هو يوم استقرارها في قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ وفي ذلك اليوم تهلك الكائنات الحية جميعها. بينما سرعة القمر في دورانه حول الأرض (١٨٤) كم يومياً أي بسرعة ١٦ كم/ ساعة تقريباً بينما سرعة الأرض حول الشمس بمعدل (١٧٧٠) كم/ الدقيقة الواحدة.

(١) انظر بتفصيل ابن خليفة علبوي، سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية، ط٣، دار الإيمان، دمشق، ١٩٨٨ /١ البرهان الخامس عشر والسادس عشر ص ١١٢ - ١٢١.

ولهذا فالقمر بطيء فالناظر إليه يراه يتأرجع إلى الأمام وإلى الخلف وإلى الأسفل وإلى الأعلى ولا يتجاوز منازل الأربعة تربيعاً أولاً في هلاله، فبدراً فتريعاً ثانياً فمحاقاً، فتتولد منازل القمر بسبب المقارنة بين سرعة الشمس السرعة التي تبلغ أضعافاً مضاعفة من سرعة الأرض، وسرعة الأرض تبلغ أضعافاً مضاعفة من سرعة القمر هكذا:

▪ سرعة الشمس في الساعة (٨٦٤, ٠٠٠) كم

▪ سرعة الأرض في الساعة (١٠٦, ٢٠٠) كم

▪ سرعة القمر في الساعة (١٦) كم

ويتولد نور القمر من عكسه لأشعة الشمس، وتتولد منازل بسبب وضعه النسبي بين الشمس والأرض.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ النِّسَابِ وَالْجَسَابِ مَا خَلَقَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

الأدلة العلمية على وجود الله

آية الليل والنهار ١

يقول الحق سبحانه ﴿لَمَسُدُّ يَلَهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ لَوْلَا فَاتَهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ حَرَكَةً وَانْتِظَاماً يَتَشَكَّلُ مِنْ حَرَكَاتِهَا الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَعَبَّرَ عَنِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْخَلْقِ وَعَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ - بِالْجَعْلِ أَيْ التَّنْظِيمِ كَمَا فِي الْآيَاتِ الْآخَرِ يَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ [انفصهان: ٦٢]. ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَقُّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَنِيُّ﴾ [الزمر: ٥]. وقال سبحانه ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وإذا ما نظرنا في عظمة الإعجاز في وصف خلق السموات والأرض، وإخراج الليل والنهار ظاهرتين من نعم الله الكبرى علينا، وهما متولدتان من حركة دقيقة من مخلوقات في السموات ومن حركة الأرض فيما هو معروف علمياً كحقائق لمجد ذلك كله دالاً على عظمة الخالق سبحانه الذي خلق كل شيء وهده ونظمه.

ولنتنظر إلى ما يقول العلم من حقائق حول الليل والنهار وإلى ما لفت الله نظر البشر إليه في القرآن ليلله على الخلق سبحانه ليؤمن به ويعبده وحده لا شريك له.

كان العرب في الجاهلية يعتقدون أن الليل يسبق النهار^(١)، وليس العكس أي أن النهار يسبق الليل، فالله تعالى يلفت نظرهم إلى أن هذا الاعتقاد غير صحيح، وأن هذه المعادلة غير صحيحة، فلا الليل يسبق النهار ولا النهار يسبق الليل، فالليل والنهار جاءا من حركة تولدت مما خلق الله في السموات والأرض من حركات تمثل قانوناً ولد هذه الظاهرة الدقيقة، وهي حقيقة ثابتة تسير على نظام دقيق إلى قيام الساعة. وذلك ظاهر من كروية الأرض من شكلها فالأرض ليست على شكل هندسي مثلث أو مربع أو مستطيل وإنما على شكل كروي أو دائري، إذ لو كان هذا الشكل غير كروي لوجد في ساعة الخلق النهار أولاً، وكانت كل الأرض مضيئة، ولكن الله تعالى خلق الأرض على شكل كروي ليخلق أو ليجعل الليل والنهار مخلوقين معاً ولذلك قال تعالى: ﴿يَكُونُ الْيَوْمُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى الْيَوْمِ﴾ [النجم: ٥] وبهذا الخلق الكروي للأرض وهذا التسخير للشمس والأرض، يكون نصف الأرض مضاءاً والنصف الآخر مظلماً معاً، ولولا هذا الشكل الهندسي الدائري لم يكن الليل والنهار متساوين ومخلوقين معاً^(٢).

وجدير بالذكر بأن العلم الحديث أثبت أن علماء الفضاء حينما نظروا إلى الأرض بعد تجاوزها فوجدوها من الفضاء الخارجي لها أن نصفها مظلم ونصفها الآخر مضيء وصوروها على تلك الهيئة.

ثم عبر الخلق سبحانه بأنه جعل الليل والنهار (خليفة) أي يخلف كل منهما

(١) محمد متولي الشعراوي، الألفة المادية على وجود الله، طبعة مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٨٦.

(٢) انظر التفاصيل، الشعراوي، الألفة المادية، ص (٨٦ - ٨٧، ٩٠، ٩٣). وانظر للتوسع ابن خليفة عليوي، البرهان السليح عشر، ص ١٢٢ - فما بعدها.

الأخر، وهذا معناه أن أحدهما لم يبدأ ثم خلفه الآخر، لأن البداية في خلق أحدهما يعني أنه لم يسبقه مقابله حتى يخلفه، فإذا إن شاء الله تعالى خلق الليل والنهار معاً يخلف أحدهما الآخر على الأرض، أما هما فموجودان معاً، فنصف الكرة الأرضية نهار ونصفها الآخر في الوقت نفسه ليل، وتتحرك الأرض حول محورها في مقابل الشمس فيبدأ يظهر نهار على جزء من وجه الأرض يخلفه ليل في مقابله على جزء آخر من الأرض من الجهة المقابلة، وهكذا يستمر الحال، وكل واحد منهما يطلب الآخر أو يطارده ويخلفه في موقعه، ولا يمكن إطلاقاً أن يضيء شيء من وجه الأرض فيصبح نهاراً إلا إذا أظلم شيء مقابل من وجهها أي خلفه ليل في مقابل ذلك الجزء على سطح الكرة الأرضية، إذ كيف يخلف ليل نهاراً إن لم يكونا موجودين وخلقوا معاً؟؟

وهذه هي الحقيقة العلمية التي أثبتها العلم بدوران الأرض حول محورها في مقابل الشمس، فيتعاقب الليل والنهار فعلاً فقلدر ما تنقشع غشاوة الليل تظهر نضاعة النهار، قال تعالى في تصوير هذه الحقيقة العلمية الدالة على عظمه خلقه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرِينَ بِأَمْرِ رَبِّهِ إِنَّ لَهُ لَخَلْقَ الْبَارِئَاتِ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وأثبت العلم أن الليل يهجم على النهار من فلك القمر بنفس السرعة التي ينحسر فيها النهار عن الأرض، وسرعة كل منهما مساوية لسرعة الأرض.

وانظر قوله تعالى ﴿وَمَا يَكُنْ لَهُمْ الْبَلُّ أَلَّا يَكُونَ مِنَ الْبَارِئَاتِ فَإِذَا هُم مَّنْطَلِقُونَ﴾ (٥٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٥٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٥٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَلُّ سَائِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

الظلام في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمْ أَلْتَلَّ سَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

يقول العلم الكوني: يتكون ضوء النهار بسبب التأثير بأشعة الشمس من خلال الغلاف الجوي حتى ارتفاع مائتي (٢٠٠) كم فقط، وتلك المنطقة تواجه وجه الشمس دائماً، وهي تنسلخ من باقي جسم الغلاف الجوي المظلم تماماً كما ينسلخ جلد الشاة من الشاة فعلاً، إذن الغلاف الجوي المظلم هو الكتلة الأرضية، وهي تشبه جسم الشاة وهو الليل المظلم. أما الكتلة المضيئة منه المواجهة للشمس فهي التي تمثل جلد الشاة الذي ينسلخ عن جسمها وهو النهار المضيء، فسبحان من خلق وسبحان من وصف العملية قبل أن يعرفها العلم وقبل أن يصل إليها العلماء.

وتعال معي إلى هذه الملاحظة التي سجلها رواد الفضاء أثناء صعودهم في المركبات الفضائية فكلما صعدوا إلى أعلى في الحلاف الجوي أصبحت الدنيا ظلاماً حتى يصلوا إلى نقطة معينة في الفضاء الخارجي، فيصبحوا كالعميان تماماً. وهذا يعني بالنسبة لهم فقد النهار تماماً حينما يخرجون من الغلاف الجوي للأرض، إذن فالليل والنهار إنما هما بالنسبة للأرض، مع أن الشمس بعد هذا الغلاف الجوي للأرض، فلا نهار ولا ليل فيها، فأشقتها دائمة ولكن أين تنهب أشعتها؟ إنها تمتص بواسطة طبقات الجو وتصبح السماء سوداء مظلمة، وتزول زُرقة لونها. أليس هذا هو ما لفت إليه ربنا سبحانه أنظارنا في كتابه دالاً على عظمة خلقه لنؤمن به قبل أن نصل إليه تجريبياً بعلومنا فلنسمع قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْفُسُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحج: ١٤-١٥].

وتعال معي إلى معرفة ما هو النهار وما علاقة الشمس به؟

أثبت العلم أن النهار هو غلاف أرضي في صورة جيوب ضوئية تحوي جزيئات مادية دقيقة في الغلاف الجوي، وهي التي تتجمع أشعة الشمس فيها، وتعكسها على الأرض فتنتشر الضياء فيها، بينما تنعكس هذه الجيوب في الفضاء الخارجي أي بعد الغلاف الجوي للأرض؛ ولذا فلا انعكاس لأشعة الشمس، ويكون هناك ظلام دامس رغم سطوع الأشعة في ذلك الفضاء؟ إذن من المسؤول عن الضوء إنه النهار وهو عكس الفكرة التي كانت سائدة أنها الشمس. ولنتسمع إلى قول الخالق سبحانه الذي بلغت نظرنا لهذا بلقة إلى هذه الحقيقة العلمية الدالة على عظمته وإعجاز كتابه وآياته الكونية وآياته القرآنية: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا يَجْأَىٰ﴾ [الشمس: ١ - ٣].

فسبحان من خلق، وسبحان من أنزل الكتاب، وأعجز الخلق بعظمته ومعجزة نبيه ﷺ.

الأدلة العلمية على وجود الله

السماء دالة على عظمة الله

انظر إلى السماء المرفوعة تعلو الأرض، وهي مرتفعة إذا نظرنا إليها من الأرض، وهي هذا الفضاء الذي نرى فيه الشمس والقمر والكواكب والنجوم، وقد رُفعت وزُيّنت بزِينتها من الكواكب، ولا ترى فيها أي عيب أو تصدع أو شق وقد وصل علم الفلك إلى التنبؤ بدقة بحدوث ظواهر الكسوف للشمس، والخسوف للقمر، من حيث زمن هذه الظواهر باليوم والساعة والدقيقة والثانية.

واستنبط العلماء قانوناً كلياً من دورات الكواكب وثبات دورات المجموعات الشمسية بمعدل ثابت أوصَلَهُ هذا القانون إلى التنبؤ بوجود كوكب مجهول في مكان حددته الحسابات الأرضية دون أن يكون مرئياً، وقد لحج العالمان «آدمز ولامير» في تقديم حساب رياضي أوصَل العلماء إلى توجيه تلسكوب مرصد برلين إلى نقطة محدودة في الفضاء في السماء، واكتشفوا كوكباً سياراً جليداً هو «نبتون» وهذا ما يدل على ثبات في قانون إدارة ما في السماء من كواكب ولجُوم. أليس ذلك هو ما لفت ربنا سبحانه نظرنا إليه دالاً على أنه هو سبحانه: ﴿الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

حيث قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [إسراء: ٤٧]. ما هذا الميزان؟ وما هذه المعادلة الدقيقة التي تحكم رفع السماء ودورة النجوم ومواقعها وحركة الفلك والأجرام السماوية في هذه الخارطة الرائعة في السماء بحيث لا

تصادم ولا تنفلت الأجرام من حول شمسها^(١)؟

إنه الميزان الذي حكم الله له هذا الكون ونظمه، تقول المعادلة العلمية التي تحكم الخريطة الكونية في السماء: إن تأثير قوى التجاذب بين هذه المخلوقات أي الأفلاك حول شمسها وهي تدور حولها - تساوي تأثير طاقة الحركة وبشكل مضاد لها، وهذه المعادلة أو هذا الميزان هو الذي يشير إليه قوله تعالى ﴿وَمَسَّكَ الْتَنَكَّ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِی﴾ [الحج: ٦٥] ذلك أنه لو كان أحد طرفي هذه المعادلة مختلاً بحيث زادت قوة التجاذب عن طاقة الحركة لسقطت السماء على الأرض، وحيث لم تحطم النجوم الضخمة الرهيبة والكواكب الضخمة الأرض تماماً بعد أن يقع بعضها فوق بعض وبعد تصادمها. في حين لو قلَّت قوة التجاذب عن طاقة الحركة المضادة لها لانفثت الأجرام السماوية من أفلاكها حول شمسها، وانطلقت على غير هدى، ولاصطدمت المجموعات السماوية من لمجوم وكواكب وحطمت الأرض وما عليها. وهنا تشهد عظمة دقة الخلق وعظمة الخالق الذي خلقها على هذا الحال، وضبطها بقوانين ثابتة ومعادلات دائمة، وسبحان القائل والبال على هذه العظمة في كتابه ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَجَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ وَلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُقَاتِلُونَ﴾ [الرعد: ٢].

ومن الدال على عظمة هذا الخلق ودقة هذا الميزان في حين تعادل الطاقة المفقودة من الغلاف المضيء والطاقة المناسبة من الباطن بنفس المعدل، وهذا المسؤول عن حالة التوازن هذه في الضبط والتوازن بين الطاقة والتوازن في السطح،

(١) راجع في هذا بالتفصيل والتدقيق البرهان الثالث عشر في كتاب ابن خليفة عليوى، سبعون برهان، ص (٩٧ - ١٠٨).

وكل هذا يجعل هذه الأجرام السماوية بعد أن رفعها في حالة توازن دائمة في ذاتها فضلاً عن توازن دائم فيما بينها من حيث أبعادها والمسافات فيما بينها، وكل منها يسير في دورته دون تصادم مع الآخر. وانظر إلى دقة صنع الله الذي جعل المسارات لهذه الأجرام السماوية في الفضاء منحنية وليست تسير في مسارات مستقيمة، فيسمح لجميع هذه الأجرام بالسباحة في الفضاء دون التصادم فيما لو كانت المسارات مستقيمة.

وقد أثبت العلم أن ثمة تجاذباً بين أجزاء الكون كله بشكل أفقاس، وهذه تعمل عمل الأعمدة في البناء، فكل كوكب يتجاذب مع الآخر بقوة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتي الكوكبين مقسماً على مربع المساحة بينهما وهذه القوة هي التي تمسكه في مكانه أو في فلكه بحيث يظل كل جرم وكل شيء في أبعاد متساوية من بعضها، وكأنها مقامة فوق أعمدة لا تثرى فسبحان الخالق القائل: ﴿أَلَيْسَ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

الهداية في المخلوقات دالة على الله

بعد أن عرفنا أنه لا خالق إلا الله، وأنه لا يملك أحد سواه أن يخلق شيئاً؛ فمن باب أولى لا يستطيع أن ينظم شأنه وحياته وحركته وأمره أحد سواه، قال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ مُزْبِرَ مَثَلٍ فَاسْتَعِينُوا اللَّهَ إِنَّا كَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۚ﴾ [ما قدروا الله حق قدره إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ] [الحج: ٧٢ - ٧٣] ولماذا يتحدثهم الله سبحانه ويتحدى من يزعمون أنهم آلهة يقدسونهم من دون الله، يخلق الذباب، فهي حشرة صغيرة، وحشرة عالمية لا يخلو منها بيت ولا بلد في الدنيا يسكنه بشر. فهو تحد من الله للناس جميعاً، طبقاً لعالمية الرسالة، وتحديها عالمي. فهل استطاع أحد من أولئك الملحدون رغم وصولهم إلى علوم هي غاية في الدقة في الكيمياء والأحياء وسائر أنواع العلوم هل استطاع خلق ذبابة؟ بل إن الله تحدثهم أنه لو وقع الذباب على طعامهم ثم لعقت ذبابة شيئاً منه أن يعيدوه كما هو من الذبابة.

وقد أثبت العلم الحديث أن الله تعالى جعل من خصائص أخذ الذبابة للطعام أنها فوراً تفرز عليه مادة مذيبة له ومحولة له تحويلاً كاملاً إلى شيء آخر؟ فما أعظم الخالق الذي يتحدى الإنسان أن يخلق ذبابة أو يعيد شيئاً سلبته الذبابة منه؟ لماذا؟ فإنه الخالق لكل شيء، والعليم بما أودع في الذبابة من خاصية التغذية.

ثم تعال بعد ذلك إلى ما هدى الله تعالى مخلوقاته له مما لا يمكن أن يكون ذاتياً منها؛ فهي غير عاقلة ولا عارفة، ولكنها مهتدية بهدي ربها الذي خلقها وهداها. وتعال معي لنشهد عظمة الخالق في هدايته لمخلوقاته الدالة على أنه هو

موجئها وخالقها ومُبدعها وهاديها وأنه لا رب سواه. فمثلاً تحمل المرأة ولا خبرة لها بالإرضاع بل لم يكن في صدرها لبن، فلماذا؟ ومن الذي يجعل غُدَد اللين في المرأة الحامل تعمل في فترة الحمل في حين لا تعمل في غير الحامل، ولا تعمل في غير وقت الحمل؟ من الذي يهدي هذه الغدد لتنشط وتفرز اللبن؟.

الله الذي يحرك مواد في المبيضين للمرأة، «وفي نهاية الحمل وبدء الوضع تتلقى هذه الغدد اللبنة الأوامر من الغدد التخامية الموجودة في قاعدة الجمجمة لصناعة اللبن، وما أن يلد الطفل»^(١) حتى يجد غذاءه ورزقه من لبن الأم، بل لا يكاد يولد إلا وتبدأ شفثاه تبحثان عن ثدي الأم ليرضع، وتبدأ شفثاه وعضلات فمه ولسانه وحركة عنقه وفكه من الأسفل، ونفسه من أنفه، وهو يمتص الحليب من ثدي أمه بعملية دقيقة ومتقنة مع أنه لا خبرة له سابقاً إطلاقاً بهذه العملية، ولا تدريب له على هذه المهارة قبل هذه اللحظة؟ فمن الذي هداه لهذا؟ إنه الله الهادي سبحانه.

وتعال معي إلى ثعابين الماء وأسماك المهاجرة التي تقطع آلاف الأميال في البحار والمحيطات. فمثلاً هناك أسماك تهاجر من المحيطات إلى جنوب برمودا لتبيض بيوضها هناك وتموت بعدها. فما أن تفقس بيوض تلك الأسماك التي ماثت وليس لها أمهات تحملها أو تلها أو تدرها، تبدأ تلك الأسماك الوليدة الجديدة تعود إلى أوطان أمهاتها في البحار والمحيطات التي هاجرت أمهاتها منها، كل إلى موطنه دون أن يغير نوع منها أوطانها^(٢)، فمن الذي هدى هذه الأسماك الوليدة إلى أوطان أمهاتها وأجناسها أو أنواعها؟

وإنه لم يحدث إطلاقاً أن ثعباناً واحداً منها أمريكياً غيّر موطنه إلى شواطئ أوروبية مثلاً. من الذي هداه لهذا؟ إنه الله الهادي سبحانه.

وتعال إلى الزنابير^(٣) أو ما نسميه اللبابير فإنها تصطاد الجنادب، ولكل منها

(١) سعيد حوى، الله جل جلاله، ص ٧٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٦.

(٣) المرجع السابق.

إبرة فيها سم، وحين يصطاد الزنبور فريسته من الجنادب ينخزه بالإبرة وينسبه سم
معددة بحيث يفقد الوعي، ويبقيه حياً مخلداً حتى لا يموت الجنادب فيتعفن ولا
يصلح لتغذيته، بل يخلده ويفقده الوعي ليبقى طعاماً طازجاً غير متعفن وغير
مسمم سماً يضره ويضر صغاره إذا أكلوا منه، ويقوم بلفن فريسته المخلدة (الحية
في مكان معين لتأتي إناث الزنبور فتضع بيوضها في ذلك المكان ثم تغطي هذه
المكان وتلك الحفرة وترحل ثم تموت، فلما تفقس بيوضها تخرج الزنابير الوليدة
لتجد طعامها محفوظاً لها وطازجاً. تتغذى عليه حتى تستطيع الحركة بعد أن تكبر.
وانظر في هذه الطريقة وكم تكررت عبر ملايين السنين، فمن الذي هدانا لهذا
بحيث أصبح ديلنها؟ إنه الله تعالى الهادي.

وكتبنا لنا قصص العلم أن عالماً أراد أن يستفرخ الدجاجة^(١)، من غير
الحضانة الطبيعية للدجاج، وكل ما هنالك أوجد درجة الحرارة والبيئة الحرارية
المناسبة المشابهة وصنع جهازاً للتفريخ، ولكنه فشل في ذلك. فنصحته مزارع من
مزرعة دجاج أن يقلب البيض لأنه رأى الدجاج يفعل ذلك فهو يقلب البيض تحته
وهو يجلس عليه؟ فلما فعل العالم ذلك وجد البيض قد خرج منه فراخ؟ فلماذا
يفعل الدجاج ذلك التقليب لأنه بالتعليل العلمي: إن الدجاجة تعرض كل أجزاء
البيضة لدرجة حرارة واحدة بالتقليب مما يجعل الفرخ المتولد داخل البيضة إذا لم
يقلب البيضة ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه، ولذلك فإن
الدجاجة تقلب البيض في أيام جلوسها عليه إلا في اليومين الأول والأخير؟ فمن
أين للدجاجة هذه الدراية؟ ومن الذي أعطاها هدايتها منذ أن خلق الله الدجاجة
الأولى إلى آخر الزمن. إنه الله تعالى الهادي القائل: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ
هَدَى﴾ [طه: ٥].

(١) سعيد حوى، الله جل جلاله، ص ٧٧.

الحكمة الدالة على عظمة

الخالق سبحانه

إذا نظرنا إلى المخلوقات وجلنا كل شيء موضوعاً في عمله، وإذا نظرنا في كل ظاهرة وجلنا كل شيء منتظماً في وقته؛ وفي مكانه، وفي هيئته، وفي صورته بحيث لو تغير شيء عما هو عليه لفسد أمره ولم يقدّم بوظيفته، ولاختل نظامه. ويعبر عن هذا المعنى بالحكمة وهي وضع الشيء في عمله، فمن الذي وضع الشيء في عمله، وهو عالم بأمره وهو حكيم في صنعه؟ إنه لا يمكن أن يكون مخلوقاً؛ لأن المخلوق حادث وطارئ على الوجود وعلمه حادث، ومتغير فالمنزه عن الجهل وعن الخلو هو الخالق العليم الحكيم سبحانه، وتعال معي نستعرض شيئاً يسيراً جداً بحيث لا يكاد يذكر في مظاهر هذه الحكمة الربانية في الخلق:

تري من الذي جعل الخفافيش تطير في الليل المظلم، وبصرها أصلاً ضعيف، ولا تصطدم هذه الخفافيش بالجلدان والحواجز مهما كان عددها وضخامتها؟ بعد الدراسة العلمية الدقيقة لهذه الظاهرة وجد أن الخفافيش ترسل اهتزازات هي أشبه بالأشعة التي ترتد على شكل الاهتزازات منعكسة عليها لتحول بينها وبين أن تصطدم بالجسم المقابل. ولقد كانت هذه المعرفة في هذه الظاهرة لدى الخفافيش بداية للعلماء لصناعة الرادار^(١).

وانظر هذه الحكمة في عظام الطيور المختلفة عن عظام سائر الحيوانات؛ حيث وجلنا بالتشريح أن عظام الطيور رقيقة مجوفة خلافاً للحيوانات الأخرى، وما ذلك إلا لجعل الطيور أخف وزناً بالنسبة لحجمه من الحيوانات حتى يمكنها من الطيران.

(١) سعيد حوى، الله جل جلاله، ص ٩٨.

وهناك نوع من الطيور تسمى البالحجو تعيش في القطب الجنوبي، تبيض هذه الطيور في الشتاء البارد جداً والمظلم جداً، وتضع بيوضها بعيداً عن التلف في الثلج حتى تشتد قوة الصغار ويستطيعوا الطيران.

وانظر إلى الأسماك في البحر وهي تتجنب الحواجز أو الأجسام المادية، فكيف تعرف الأسماك الخطر المهدق بها لتتجنبه؟ ثبت علمياً من خلال الفحوص المخبرية أنه يوجد أعضاء دقيقة حساسة جداً موجودة على الخطوط الطولية الموجودة على جانبي السمك، وهذه الأعضاء تعطي السمك إحساساً باختلاف ضغط الماء إذا اصطدم بحاجز رغم تواجج الماء، وبالتالي تغير الأسماك مسارها لتتجنب الخطر.

وانظر حكمة الله تعالى في ظاهرة الحياة تقابلها ظاهرة الموت والحكمة في ذلك، يقال لو أن ذبابتين توالدتا واستمرتا أولادهما بالتوالد وهكذا دون أن يتعرض الذباب لظاهرة الموت، فإنه بعد خمس سنوات فقط تشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها خمس مستمترات^(١). فكيف إذا ما ترك هذا الذباب بدون موت ألوف السنوات فماذا يمكن أن تشكل هذه الظاهرة لتوالد الذباب وحياته للكرة الأرضية ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَدْرِي الْمَلَكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَبْلُوَكُمْ أَفْئَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ^(٣) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بِطَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَنظِرْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ^(٤) ثُمَّ أَنْظِرْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَافِيًا وَهُوَ خَبِيرٌ﴾ [الملک: ١ - ٤].

تري هذه الفضلات الخارجة من الإنسان ومن الحيوانات ومن المتعفنات والقاذورات والمهملات التي يلقي به في البيئة فكم هي خطورتها لو تراكمت في البيئة! فمن الذي يخلص البيئة منها؟ إنها مخلوقات أخرى من البكتيريا والتي تحولها

(١) سعيد حوى، الله جل جلاله، ص ٩٢.

إلى أشياء أخرى فتزدها وتبددها وتحولها إلى أشياء مفيدة في البيت، وتنتهي أزمة تراكمها وإعاقتها، وتصبح في كثير منها أشياء نافعة وأسمدة مفيدة.

وانظر إلى خلقه هذا الإنسان وفيها مالا يحصى من الحكم. ترى لو أن عيني الإنسان وضعتا في غير محلها فكيف لهذا الإنسان أن يعيش؟ وانظر إلى المجال البصري للإنسان للأمام والحكمة من جعل الأذن في موضعها، ومجال السمع من جميع الاتجاهات للإنسان؟

وانظر إلى الحكمة من خلق الكليتين، فإن في كل كلية مالا يزيد عن ٣ سمتمرات هي المسؤولة عن وظيفة الكلى في تنقية الدم، وعشر هذه المنطقة كافية لحياة الإنسان، والله تعالى أعطى هذا الإنسان كليتين (٦ سم) منهما تقومان بالوظيفة، ولو أصيبت معظم هاتين الكليتين بالتلف وبقي قليل جداً منهما لكفى، وانظر الحكمة في شخص يفقد إحدى كليتيه فيعوضه الله تعالى في الكلية الثانية فتكبر وتتضاعف المنطقة المسؤولة عن الوظيفة. وانظر كم تصبح حياة الإنسان صعبة وكم يحتاج الطب إلى أجهزة وعدد من المرات أسبوعياً من غسيل الكلى فيما لو تعطلت هذه القطعة الصغيرة جداً من الكلية التي تقوم بهذه الوظيفة. وانظر إلى أنه لا يمكن أن يعوض جزء آخر من الجسم هذا الكلية لو تلفت. فسبحان الخالق القائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القصص: ٤٩].

العدالة في توزيع المخلوقات على الأرض

دليل على وجود الخالق وعظمته

خلق الله تعالى المخلوقات: حيواناتها ونباتاتها وجعل بينها من العلاقات ما يجعلها متوازنة؛ منها ما هو صليق للآخر، ومنها ما هو عدو للآخر. وعلى كل الأحوال علاقاتها بقدر، ذات فائدة للإنسان الذي سخر الله له ما في السموات وما في الأرض.

وهناك نماذج من هذه العدالة الدالة على قدرة الله ودقة خلقه سبحانه:

تكاثر الصقور في إحدى الولايات، واشتكى أهل الولاية من اعتداءات هذه الصقور على مزارع الدجاج عندهم، وألح المزارعون على حكومتهم بضرورة حل المشكلة، وقتل الصقور لأنها سببت لهم خسائر كثيرة، وأخيراً تحت وطأة الإلحاح من الجمهور قررت الحكومة مساعدة المزارعين بالقضاء على الصقور وجنلوا كثيراً من الشباب، ودفعوا مكافآت مالية مجزية لكل من يقتل صقراً، ولجحت معركتهم في قتل عدد كبير جداً من الصقور واستراح المزارعون مؤقتاً بتأمين دجاجهم. ولكن ما إن مرت برهة إلا وجد المزارعون مشكلة جديدة تواجههم، فهاجمتهم أعداد كبيرة من الفئران لتقضي على حقولهم وزراعتهم وجيوبهم، واكتشفوا أن ما فعلوه من حرهم للصقور وقضائهم عليها كان سبباً كبيراً في كثرة الفئران؛ لأن تلك الصقور كانت تتغذى على الفئران، وأن القضاء عليها كان فرصة لسلامة الفئران وكثرتها وتكاثرها.

فندم أهل الولاية ومن أين لهم أن يستشعروا عدد الفئران؟ فكان الأولى لهم أن يخطوا لسلامة دجاجهم ويتركوا التوازن والتعادل الذي خلقه الله تعالى بين

المخلوقات دون أن يتدخلوا فيه، وما ذلك التوازن إلا قدراً من أقدار الله، ينشيم التوازن بين المخلوقات فيما فيه مصلحة الإنسان.

وهذا درس للإنسان الذي يتدخل في التوازن الطبيعي الذي خلقه الله تعالى، فإن فيه تدميراً لحياته. وليترك الأمر لحكمة الله عز وجل. وانظر إلى خطورة حرق طبقة الأوزون الذي تسببه الغازات المنبعثة من الصناعات بكافة أنواعها، وانظر إلى السموم النووية التي ترمى في البحار، وفي صحاري البلاد الفقيرة ما يهدد البيئة والسلسلة البحرية لغذاء الإنسان من الأسماك والحيتان. وحينما نسمع عن هذا الاعتماد الإنساني على التوازن فيما خلق الله تعالى نذكر حديث الرسول ﷺ كيف أن الطيور في السماء والحيتان في البحر تستغفر لمن يعلمون الناس الخير لأن العلماء إذا علموا الناس الخير، حافظوا الناس على البيئة ولم يقتلوا الأسماك والطيور، ولم يسموا الأجواء. وانظر ما يتحدث العالم اليوم عنه من التغيرات المخيفة في المناخ.

ويروي صاحب كتاب «سبعون برهاناً علمياً» قصة في دلالة دقة عدل الله على وجود الذات الإلهية^(١) في توزيع المخلوقات على الأرض، - والبراهين طبعاً أكثر من ذلك وهي لا تعد ولا تحصى لكثرتها - أن إحدى المناطق في أمريكا يعيش فيها الأيّل، وهو نوع من الغزلان، وأن طعام هذا النوع من الغزلان الرئيسي الورد البري. وأنه يعيش في هذه المنطقة عدو هذه الأيائل أسود الجبل فهي طعامه المفضل، وهذه المخلوقات النباتية الورد البري والأيائل والأسود تعيش في حالة توازن. وقررت حكومة تلك المنطقة القضاء على أسود الجبل من أجل حماية هذا النوع من الغزلان، ولما نفذت خططها وجدت مشكلة بيئية خطيرة جداً، فلم يعد الورد البري يكفي طعاماً للغزلان وأخذت تتجاوز وتعتدي على سائر شجيرات المنطقة وأشجارها الصغيرة، ولم تكفها، وماتت الألوف منها وبهذا فقد اعتدى

(١) ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً ص ٢٠٦ - ٢٠٧ بصرف.

الإنسان على توازن مفردات البيئة فأضر بالبيئة وبنفسه، فسبحان الخالق القائل ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القصص: ٤٩].

ولقد استحدثت الجامعات تخصصاً جليداً وشجعت في مجال الحشرات حيث وجد أن استعمال المبيدات الحشرية الكيماوية قد أضر بالبيئة إذ أصبح لدى الحشرات المهاجمة مقاومة للمبيدات الكيماوية، وقد قضت هذه المبيدات على حشرات كانت هي التي تهاجم آفات زراعية فتتغذى عليها وتنظف البيئة منها. فسبحان من خلق هذا التوازن وجعل عدو كل من نوعه.

قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرِ ۝ الَّذِي خَلَقَ مَسْوِينَ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَنًا ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْأَنْزِلَ ۝ فَجَعَلَهُ فَنَاءً مُّحْدِقًا ۝ سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَى ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ وَمَا يُخْفَى ۝﴾ [الأعلى: ١ - ٧].

النوم آية دالة على عظمة الخالق

نعان معي إلى هذه الآية من آيات عظمة الخالق التي لا يعلم سرّها كاملاً إلا خالقها، وهي نعمة من نعم الله على هذا الإنسان وعلى غيره من المخلوقات من الحيوانات. إنها آية النوم. مَنْ مِنّا يستطيع الاستغناء عنه؟ مَنْ مِنّا لا يجد نفسه مضطراً إليه وباحثاً عنه، بل ومستسلماً له شاء أم أبى؟ إنه جزء من أعمارنا التي نغيب فيها عن الوعي عن الدنيا وعن العمل وعن النشاط، ولكنه مطلوب محبوب مرغوب فيه. من يصاب بمرض يقلقه أو تؤثر يزعجه، أو عمل يسلب النوم، يجد نفسه مكروباً مضطرباً يتوجه إلى أبواب الأطباء والعيادات النفسية يبحث عن النوم وأدويته. لماذا كل هذا القلق؟ لأنها الحاجة الماسة إلى النوم.

تروي لنا كتب العلم ومنها كتاب ثقافة طبية كما نقل عنها صاحب كتاب سبعون برهاناً^(١) أن طبيباً نفسياً يعمل في معهد أبحاث قام بتجربة على خمسة وعشرين رجلاً، تطوعوا بأن يبقوا مستيقظين ساعات طويلة بلغت مائة ساعة أي أربعة أيام تقريباً دون نوم مهما غالبهم النوم، وأشغلهم بأعمال تقع في إطار اهتماماتهم، وانتهت التجربة إلى أن هؤلاء الرجال استطاعوا أن يصمدوا بوضع صحي ونفسي مدة يومين فقط، ويبدو أن هذه المدة مناسبة في الصومود عموماً للإنسان الذي يواصل استيقاظه مع وجود ما يشغله. لكن بعد انقضاء اليومين بدأت المتاعب تظهر عليهم، فأصبحوا يعانون من قلة التركيز في الانتباه، وتعرضوا لتهيج وتوتر، وسرعة انفعال، وأخذ بعضهم يرى صور الأشياء مزدوجة وأخذوا يعانون من هلوسة، وبعضهم يقول أنه يسمع أصواتاً حتى إن أحدهم أخذ يخيّل إليه أن أمه الميتة تناديه، وأن كلماتها واضحة بحيث أخذ يلتفت باحثاً عنها وعن

(١) ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، ص ١٢٨ - ١٢٩.

مصدر الصوت، بينما خيل لآخر أن الأثاث من حوله يتحرك.

وخيل لثالث أن كلباً يسير في المستشفى... وهكذا بدأت عقولهم بالانهيار، ولم يعودوا يحتملون، وما كان لهم من دواء إطلاقاً إلا الاستغراق في النوم حتى تعود لهم صحتهم النفسية وأوضاعهم الطبيعية.

فسبحان من أسدى هذه النعمة لعباده والقائل في كتابه العزيز: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاسَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠] والقائل ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبا: ٩]، فالسبات هو النوم والراحة، فالإنسان يحتاج إلى هذه الراحة. ولكن ما الذي يستريح في هذا الإنسان، وما هي هذه الراحة؟ النوم يريح الجسم والعقل وكل حواس. الإنسان من الجهد الذي نقوم به في حالة اليقظة.

ومعلوم أن الدماغ فيه المخ والمخيخ، وتنتهي إليه كل ما تدرك الحواس وما تصل إليه جميع أجزاء الجسم من إحساسات عبر الأعصاب، وهو المسؤول عن الإدراك وعن الأوامر التي يعطيها لكل أنسجة هذا الجسم وأعضائه وأجهزته، ولكن بالنوم تحصل راحة تنعكس على راحة الجسم أيضاً فينكمش بؤبؤ العين، وتقل أعمال الحواس، وتقل سرعة نبضات القلب، ويهبط ضغط الدم بشدة بعد الإغفاء مباشرة، ثم يعود ضغط الدم مرة أخرى للارتفاع بعد تمدد الأوعية الدموية السطحية، ويُنظف النفس عن معلقه المعتاد.

وبالتالي يقف العقل عن التفكير، وتقف الحواس عن العمل، وأكثر حاستين تتعرضان للإجهاد السمع والبصر، وتنشل حركة الجسم كلياً إلا في لحظات بسيطة في التقلب في النوم. ويستمر النفس المسؤول عن حياة الإنسان والذال على أنه ما زال حياً. وهذا هو النفس الأوتوماتيكي غير الإرادي الذي لولاه يموت الإنسان.

شاهدت ممرضات في أحد المستشفيات مشغولات بطفل، ما أن تحمله إحداهن ساعات مملودة حتى تسلمه لأخرى على مدى أربع وعشرين ساعة وهكذا، فسألت عن مرض هذا الطفل حتى أخبرت أن هذا الطفل قد ولد وليس لديه جهاز التنفس غير الإرادي الذي يسمح له بالتنفس وهو نائم. وأن هذا الطفل إذا نام مات فوراً، وأنه لا بد من حمله ومنعه من النوم حتى يبقى نفسه جارياً بوعيه وحتى لا يفقد التنفس فيموت، فكانت هذه الحالة الغريبة التي شاهلتها دليلاً على نعمة الخالق علينا بأنه يجري أنفاسنا ونحن نائمون فلا نموت إلا بقلده.

ويبدو أن أثر الروح يتوقف مؤقتاً وأهم آثارها الفكر، العقل، والحياة التي تقابل الموت. ولهذا فإن النوم هو شبيه بالموت من حيث مفارقة الروح المسؤولة عن التفكير، وهو آية دالة على الموت والاستيقاظ آية دالة على البعث.

ومن هنا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاسَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

ومن هنا فقد علمنا رسولنا ﷺ أن نتذكر هذا ونستشعر عظمة الله والإيمان به عند النوم وفي لحظة اليقظة بعده، فحين ننام من السنة أن يدعو العبد بقوله: «باسمك ربي أضع جنبي وبك أرفعه. اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين». وعند الاستيقاظ من النوم يدعو فيقول «الحمد لله الذي أحيانا بعلمنا أمانتنا وإليه النشور»، و«الحمد لله الذي رد علي روحي وجعلني من المسلمين».

السير في الأرض آية دالة على

عظمة الخالق سبحانه

هذه الأرض التي نعيش عليها، وتستقر حركتنا فيها، وفيها كل متطلبات حياتنا، ليس هذا كله من صنع خالق أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. ومما يلفت القرآن نظرنا إليه في هذه الأرض قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَكَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ الْخَلْقَ الْآخِرَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [معنكيوت: ٢٠] وذلك في جميع الآيات التي تطلب منا العظة والاعتبار، [انظرها في مواضعها الأربع عشرة في القرآن الكريم]. وحتى في البر والبحر، ويستعمل الأداة الظرفية (في) ولم يقل في واحدة من الآيات سيروا على الأرض، وإنما سيروا (في) الأرض.

مع أننا نسير على سطحها ويكتشف العلم بعد ذلك أننا فعلاً نسير في الأرض ولا نسير عليها^(١)، لأن الأرض علمياً هي كرة أرضية ولها غلاف جوي ولحن يسيرنا برأ وبحراً سواء على أقدامنا أو مركباتنا أو طائراتنا أو سفنتنا، إنما نتحرك داخل الغلاف الجوي للأرض، أما المركبات الفضائية فإنها لا تسير في الأرض وإنما تخرج من الغلاف الجوي، وهي تنفذ من أقطار الأرض وغلافه إلى خارجه، ولذلك نسير بعد ذلك فينظر أصحابها إلى الأرض من على الأرض. فمن الذي وصف سيرنا في الأرض وليس على الأرض، إنه خالقنا الذي خلق الأرض وقدر لنا أن نسير فيها لا عليها فهو العليم بنا وبها.

ثم تعال إلى هذه الآية الأخرى وهي آية قرآنية تصف امتداد حقيقة الأرض وآية علمية تحقق معنى هذا الوصف بالامتداد قبل أن يصل العلم إلى كروية

(١) الشعراوي، الأدلة المادية، ص (٩٣ - ٩٤).

الأرض؛ يقول الحق سبحانه: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْثِرٍ ۚ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ لَكُمْ لَّهُ بِزُرُوفِينَ ۝ وَإِنْ يَنْ شَاءِ إِلَّا يَجْعَلْنَا خَرَائِبًا وَمَا يُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ لَنَازِلَةٍ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْتَفْيَقَتْ كُفُوهُ ۖ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۝﴾ [الحجر: ١٩-٢٢].

يبين الحق سبحانه ويلفت أنظارنا إلى أننا إذا نظرنا إلى الأرض وجلناها مبسطة أمامنا، أي ممتدة منبسطة، وهذا الأمر بسيط وسهل وفي حد ذاته لا يحتاج كثيراً إلى تنبيه، فلم هذا اللفت للنظر في القرآن إلى أن الأرض ممتدة؟ أئمة أمر خفي في معنى هذا الامتداد في شكله الظاهر فيه وحقيقته الماثلة البسيطة الظاهرة للعيان وما الحكمة في هذا الامتداد بهذا المفهوم؟

الجواب: أن تسهيل الأرض وتبسيطها تساعد على الحركة عليها. ولكنها هنا هي الأرض وليس السطح أو التربة أو الساحة. وهذه الأرض التي حدثنا على أننا نسير فيها وحينما نمشي لجلها مبسطة ممتدة.

ولكن هذا الامتداد ليس هو الشكل الظاهر لشكل الأرض، إذ أثبت العلم أن الأرض كروية، ولذلك يأتي امتداد الأرض من كرويتها، إذ لو كانت الأرض على غير شكل الدائرة أي لو كانت مثلثاً أو مربعاً أو على شكل هندسي آخر لكانت لها حواف، وكيف للإنسان أن ينتقل عند الحواف إذ لا تعود الأرض ممتدة منبسطة؟ إذن كروية الأرض هي وحدها الشكل الذي يسمح بالامتداد، فسبحان من خلق وعلم، وبهذا فإن من جهل معنى كلمة الامتداد وظن أن الأرض منبسطة وحارب العلم في قوله بكرويتها قد وقع في فهم خطأ للآية، بل الآية امتداد الأرض هي الدالة على كرويتها قبل أن يصل العلم إلى ذلك.

ثم تعال معي إلى هذا الماء من السماء النازل على هذه الأرض التي قدره الله

بقدر، من أجل أرزاقنا، فيها وأرسل الرياح تنقل حبوب اللقاح هذا عبر الهواء من مسافات بعيدة إلى مياسم الشجر حتى تلقحها، فثمرة، ثم هذا الماء الذي تختلط به مواد التربة من أسمدة وعناصر غذائية فتتحرك جذورها إلى أعضائها بظاهرة الضغط الأسموزي أي في الأنابيب الشعرية. ويكون الحقل واحداً فمن الذي يهدي هذه الأنابيب لتأخذ أنواعاً من الأغذية دون غيرها. فهنا تكون الأغذية ثمرة يرتقال وإلى جانبها ثمرة ليمون، وإلى جانبها ثمرة دراق وإلى غير ذلك من الثمار؟ إنه الخالق سبحانه هو الذي ينوع هذه الثمار وتلك الأشجار، والعوامل واحدة والأغذية واحدة، والتربة واحدة فاسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِزٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَبٍ وَزِدْعٌ وَنَجِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يَسْقَىٰ يَمَلُّو وَيَجِدُّ وَيُقْفَضِلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرحمن: ٤].

فهلا قلنا سبحانه الله الخالق العظيم

آية خلق الإنسان من طين

هل تعلم أن هذا الإنسان بدمه ولحمه وعظمه وعصبه ودماغه إنما هو مجموع عناصر هذا التراب الذي خلقه الله تعالى؟ فهو من عالم الشهادة المنتمي إلى الكون المخلوق له، ومن عالم الغيب الذي روحه منه. أما الروح فهي غيب لا يصل العلم إلى معرفة حقيقتها وإنما يرى آثارها في الكائن الإنساني من خلال حياته ووعيه وعقله، ويرى أثر فقدانها بموت الإنسان.

يذكر العلماء بعد دراسات معمقة أن جسم الإنسان يتكون من: «تسعة عشر عنصراً من عناصر الكون هي موجودة في التراب أو الطين. ويقول أحدهم: إننا لو جمعنا في وعاء واحد (تسعة وثلاثين) كيلو غراماً من الأوكسجين، ومائة وثمانية (١٠٨) كيلو غراماً من الكربون، و(٦) كيلو غراماً من الهيدروجين و(٨، ١) كيلو غرام من الآزوت، و (٢، ١) كيلو غرام من الكالسيوم، و٦٦، ٠ كيلو غراماً من الفسفور + ٢١، ٠ كيلو غرام من الكبريت، + ٩، ٠ كيلو غرام من الكلور مع مقادير أخرى من المغنيسيوم والحديد والمنغنيز والصوديوم والبوتاسيوم والنحاس واليود والكوبالت»^(١) والزنك والذهب والفضة والسيلكون. وأراد الله تعالى لها الحياة ستشكل إنساناً زنته (٦٠) كلغم وأن هذه العناصر قد توجد فينا منفردة إلا بمقادير ضئيلة جداً، ومع ذلك فهي تتحد بعضها من بعض مكونة جزيئات متنوعة في أوزانها وخواصها الأخرى فالماء نسبه فينا يشكل ٦٥٪ من وزن الجسم، وما تبقى من الجسم مؤلف من بقية العناصر العضوية وغير العضوية. فتخيل كيف تبدأ خلقه هذا الإنسان من هذه العناصر من الطين في أول حيوان منوي وهو ماء في تلقيحه لبويضة المرأة.

(١) ابن خليفه عليوي، سبعون برهاناً، ص ٣٣١.

وهذا الماء أو النطفة فيها كل هذه العناصر وكم تكون هذه النطفة في صغرها ليصبح وزنها بعد نمو عناصرها في سن الشباب بليون مرة تقريباً من وزنها في حالة البويضة المخصبة^(١)، فمن أين جاءت هذه العناصر؟ ومن الذي خلق التراب؟ ومن الذي خلق الإنسان من هذه النطفة؟ ومن الذي أودع فيها حكمته لتنمو بالمقادير المناسبة لتصبح إنساناً بعد أن يُلقى فيه روحه. إنه الله سبحانه وتعالى. وقد أعطانا الخالق سبحانه في كتابه قبل أن يصل العلم إلى دراسة جسم الإنسان ومعرفة عناصره، أنه بدأ الخلق الإنسان من طين، ومن تراب ومن صلصال من حمأ مسنون، ومن ماء مهين، ومن نطفة إلى غير ذلك من التعبيرات في القرآن الكريم، واسمع قول الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل وهو يلفت أنظارنا إلى عظمة خلقه في هذا الإنسان من طين حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٢٩].

فالخلق يحتاج إلى تسوية، أي معادلة بين العناصر. وترتيب دقيق محكم قال تعالى: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَكْبَرِ ۝١ الَّذِي خَلَقَ قَسْوَى ۝٢﴾ [الأعلى: ١ - ٢]. ويقول سبحانه: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ۝٣٧﴾ [الكهف: ٣٧]. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۝٢﴾ [الأنعام: ٢]. ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَن خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنشَأَ بَشَرًا تَنفَخُ فِيهِ رُوحَهُ ۝٢٠﴾ [الروم: ٢٠].

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [الإنسان: ٧]. ﴿أَنزَلَ نَزْلُهُ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ [المدح: ٢٠]. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي

(١) ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، ص ٣٣٢.

عَلَى رِجْلَيْهِمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٥﴾ [النور: ٤٥] ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الثَّلَاجِ وَالْثَّرَابِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

ويقول سبحانه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُكُلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] والسلسلة هي خلاصة لأنها تسلسل من بين الكلر^(١) أي من خلاصة تولدت حتى صارت منياً، أما تولد هذه الخلاصة فهو من الأغذية. والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، والحيوانية تنتهي إلى النباتية، والنبات يتولد من صفو الأرض والماء والعناصر المكونة للطين، فالسلسلة إذن هذه الخلاصة من المتولدة من الطين، فأدم من طين، وذريته من خلاصة الطين، وهي المقصود بقوله من ماء لأن الماء هي الوسط المذاب فيه هذه العناصر المكونة للطين^(٢).

يرى الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره للآيات: «أن كل بشر مخلوق من التراب، أما آدم فظاهر وأما نحن فأننا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء، والغذاء إما من لحوم الحيوانات والنباتات وأسمانها، وإما من النبات والحيوان أيضاً له غذاء. وهو النبات. لكن النبات من التراب وينضم إليه أجزاء مائية ليصير بحيث يغذو». فسبحان الخالق القائل في محكم التنزيل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَقِّينَ ﴿٣٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٣١﴾ وَالْقَائِلُ: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دُونِهِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الأنعام: ٤].

(١) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير. ط ١، طبعه عبد الرحمن محمد، القاهرة ٨٤ / ٣.

(٢) انظر ابن خليفه عليوي، سبعون برهاناً علمياً، ص ٣٣٥. وانظر بالتفصيل الرازي، التفسير ٨٤ / ٢٣.

أطوار خلق الإنسان آيات دالة على الخالق

العلاقة والقرار المكين

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُكَّالٍ مِنْ طِينٍ ۝١٦ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٧ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّفُوسَ خَلْقًا فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظًا فَكَسَوْنَا الْيَظْمَرَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٦-١٧].

تحدثنا فيما مضى عن خلق الإنسان من طين أصلاً في خلقه آدم، ثم اتسلت العناصر الطينية مكونة خلاصة ما في التراب من عناصر مذابة في الماء لتصبح جزءاً من خلقه الإنسان بعد آدم لتكون المني والبويضة، وكلاهما خلايا إنسانية جنسية فيهما عناصر الطين أو خلاصته المنسلة من عناصره.

وتحدثنا الآيات هنا عن أطوار نشأة الجنين وخلقته في بطن أمه عبر مراحل دقيقة لم يصل العلم إليها رغم نظرياته وافتراضاته وأخطائه إلا بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن، فتأتي المختبرات عبر التحليلات وأجهزة الأشعة الإلكترونية لتتلي ببلوها، ويظن العلماء أنهم وصلوا إلى فتوحات جديدة ورائعة في دراسات علم الأجنة البشرية، ويفجعون ويسقط في أيديهم حين يستمعون لآيات القرآن في ما وصلوا إليه قبل هذه القرون الطويلة، ولم يكن وقت نزوله شيء من علم الأجنة ولم يكن محمد ﷺ يعرف من علوم البشر يومها، ولا علوم زمانه تعرف شيئاً من هذا الوصف الدقيق لأطوار خلق الجنين في بطن أمه، مما يؤكد أن الذي يصف بدقة هذه الأطوار ليس إلا خالقها سبحانه، وهو الذي لفت أنظار البشر إلى عظمة خلقه للجنين دليلاً على وجوده وعلمه وحكمته وقدرته وإرادته، وبما يثبت صدق نبوته رسوله ﷺ.

وتعال معي نقرأ ما توصل إليه علم الأجنة حيث يقول إذا ما حصل الإتمام من الرجل، وتكون البويضة مهيأة لاستقبال الحيوان المنوي، أما الحيوان المنوي ما هو؟ فهو خلايا جنسية للرجل خيطي الشكل من جهة الذيل ومقلطح من جهة الرأس، يحمل كل الصفات الوراثية - الشيفرة الوراثية للعائلة - وهو صغير جداً لا يمكن رؤيته إلا بالمجهر، وهو واحد من ملايين الحيوانات التي يقذفها الرجل عند الجماع.

أما البويضة فهي الخلايا الجنسية للمرأة، تفرزها المرأة من إحدى المبيضين الأيمن أو الأيسر، وهي تفرز في الشهر مرة واحدة قبل أربعة عشر يوماً من الحيض. تستعد لاستقبال الحيوان المنوي للتلقيح، وإذا لم يحصل لها التلقيح فإنها تتعرض للتلف وتنتهي إلى حالة حيض.

هذه البويضة ذات شكل كروي وحجمها أكبر من حجم الحيوان المنوي ب (٨٥, ٠٠٠) بخمس وثمانين ألف مرة، وتحمل الصفات الوراثية للأم، وتستقر في حفرة في بوق الرحم، فإذا ما حصل الجماع تندفع ملايين الحيوانات المنوية إلى البوق، وأسرع هذه الحيوانات وأنشطها هو الذي يصل إليها وتجذبه فيثقبها بذيله، ثم يمر في طبقة المواد الغذائية ثم يتحد مع نواة الخلية الأنثى وهنا هو التلقيح. ومن ساعتها يخصص الجنين بالذكر أو الأنثى، بعد أن يطرح الحيوان المنوي كروموزماً واحداً من أصل ثلاثة وعشرين كروموزوماً، وتنفعل البويضة كذلك فتطرح كروموزوماً واحداً من أصل ثلاثة وعشرين كروموزوماً وهذان الكروموزومون يشكلان خليطاً أو مشاجراً يحصل عليه من الأبوين ليشكل هذا المشاجر الخلقة الإنسانية، وفيها العوامل الوراثية الكاملة من الأبوين^(١).

(١) ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، ص ٣٣٩ بتصرف وقد نقل تفاصيل دقيقة في وصف تلقيح الحيوان المنوي للبويضة.

بعد عملية الاتحاد يبدأ الانقسام من الخلية المخصبة إلى خليتين، ثم إلى أربع خلايا، ثم إلى ثمان ثم إلى ست عشرة، إلى اثنتين وثلاثين وهكذا حتى يتشكل شكل مثل حبة التوت الأحمر، فتتغرس في الجلد المخاطي الوظيفي للرحم. ثم تتحول إلى علقة أي مثل الخيوط من الدم المتجمد، والعرب تعرف العلقة التي تعيش في الماء وتمتص دم الإنسان إذا وقفت في حلقه وأنشبت، وهكذا تعلق هذه العلقة المتخلقة في جدار الرحم^(١). والغريب أن العلم وصل إلى تشبيهها بالعلق قبل أن يقرأ العلماء الغربيون القرآن.

وذكر العلم كذلك أنه يتكون غشاء يحيط بها تماماً يسمى الكيس الأمينوني، ويفرز هذا الكيس ابتداءً ماءً شفافاً يتحول لونه لحو الرمادي الأبيض، ثم الرمادي الأصفر وقاية للجنين من الصدمات وليسبح فيه آمناً، وهذا هو القرار المكون، الذي حللنا القرآن عنه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣].

وقد ذكر العلماء أن هذه المرحلة التي يقضيها الجنين من المبيض بعد التلقيح إلى الرحم بين ثلاثة إلى خمسة أيام. وينتهي الأسبوع الأول إلى حالة تبدأ فيها مرحلة المضغة.

(١) المرجع السابق ص ٣٤٠ بتصرف، ويمكن مراجعة التفاصيل الدقيقة فيما نقله المؤلف عن الكتب العلمية التي تصف انقسامات الخلية المخصبة حتى تصل إلى مرحلة العلقة.

من أطوار خلق الإنسان الدالة على عظمة الخالق من المضغة إلى الولادة

مرة أخرى مع قول الخالق سبحانه ﴿وَرَأَى خَلْقَنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَكَانَتْكَ الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْتَهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٣].

وهذا وصف الخالق الذي خلق أطوار الجنين، آيات دالة على عظمة خلقه ودقة صنعه، وعلى حكمته. وكيف يقرر علم الأجنة في أرقى مستوياته العلمية بعد أربعة عشر قرناً من نزول القرآن هذه الحقائق التي لا يمكن أن يصفها في وقت نزول القرآن إلا خالق هذا الإنسان، سبحانه وتعالى الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. وقد نقل ابن خليفة عليوى تفاصيل هذا التطور والنمو للجنين من المضغة إلى الولادة، فخصره ما يأتي^(١).

بعد خمسة أيام تقريباً تكون قد تحولت تلك النطفة إلى علقه وفي قرار مكين، وبدأ يتغذى الجنين من داخل الكيس الذي تشكل حول العلقه ليحمي الجنين، وليعطيه فرصة النمو الآمن والسباحة داخل هذا الكيس والتغذي على محتوياته. حتى تأخذ شكل المضغة أي مثل قطعة اللحم التي يظهر فيها مضع الأسنان.

وبعد ستة أيام: تتحول هذه المضغة إلى كتلة من الخلايا الصغيرة المنسمة في غشاء الرحم السميك المبطن الذي يوجد فيه تمدد كثيرة وأوعية دقيقة.

وفي اليوم التاسع: تتلاشى الطبقة الخارجية الواقية ويحل مكانها نمو من جميع الأطراف على شكل أهداف صغيرة كالأصابع التي تقوم بعملية إلصاق المضغة

(١) المرجع السابق غتصراً ص ٣٤٠ - ٣٤٥.

بالغشاء المبطن للرحم، وهي بداية تكوين المشيمة، أو الخلاص التي تحيط بالجنين، وتحفظه، وترتبط مع الجنين بالحبل السري الذي يحتوي على شريانين ووريد من أجل ربط الدورة الدموية للوريد بالدورة الدموية للأم.

وفي الأسبوع الثالث: تظهر الخلايا المكونة للجنين بحيث يمكن رؤية حجم الجنين بالعين المجردة، وهي بداية تكوين الأعضاء وخصوصاً المنطقة العلوية منه التي تكون الرأس والمخ، ونموها يكون بسرعة فائقة.

وفي الأسبوع الرابع: ينمو جميع جسم الجنين بسرعة فيصل في آخره إلى ما يقدر ببوصة أي سنتيمتران ونصف وهذا الأسبوع هام جداً، حيث تتكون جميع الأعضاء والأجهزة الداخلية للجنين مثل: الجهاز العصبي والقلب والكبد والمخ والرئتين، ويبدأ خفقان القلب بشكل هادي غير مسموع.

أما بعد الأسبوع الخامس: فيتقوس الجنين كأنه نصف دائرة صغيرة ليتمكن عنده العمود الفقري وبداية تكوين الأيدي والأرجل، ويستمر رأس الجنين في النمو أسرع من غيره من أجل نمو خلايا المخ والمخيخ حتى إلى ما بعد الولادة.

أما في الأسبوع السادس: فيزداد نمو الجنين ليصبح كامل التكوين وينفتح بطنه لسرعة نمو الجهاز الهضمي عنده، ليستقبل الأسبوع السابع الذي يصبح فيه وجهه واضح الملامح وتتكون أذناه وجفونه، ويأتي الأسبوع الثامن ليستكمل نموه لتظهر أصابع أطرافه، ويظهر طوله ليصل إلى سبع سنتيمترات تقريباً، ووزنه إلى أربعة عشر غراماً. وهكذا حتى يصل الحمل إلى نهاية الشهر الرابع فيكون قد ظهرت أظافر يديه ورجليه، ويظهر رأسه مستقيماً وعليه شعر، وتتكون الأسنان داخل لثته عميقاً، وتظهر أعضاء التناسل بشكل واضح، ويصل طوله في هذا الشهر إلى خمس بوصات إلى اثني عشر سنتيمتراً ونصف (٥، ١٢ سم)، ووزنه إلى مائة وعشرين غرام (١٢٠ غم). وتبدأ عضلاته بالحركة البطيئة وتشعر الأم في نهاية الشهر الرابع هذا

بحركة الجنين.

وفي الشهر الخامس: وبين الأسبوع السابع عشر والحادي والعشرين من حياة الجنين يستطيع الطبيب سماع دقات نبضه بالسماعة الطبية، ويزداد نموه ليصل إلى عشرين سنتيمتر (٢٠ سم) ووزنه إلى ثلاثمائة وخمسون غرام (٢٥٠ غم) وهكذا يستمر نمو الجنين في الشهر السادس وبقيّة أشهر الحمل ليظهر جلده، ويتكون الشحم في جسمه، ويمتلئ الجسم، ويبدأ بالتركز لأمه يديه ورجليه، وينام تارة على جنبه الأيمن وتارة أخرى على جنبه الأيسر، ورأسه إلى أعلى وإلى أسفل، حتى يصل الشهر السابع ليأخذ وضعاً واحداً حتى الاستعداد للنزول أو الولادة.

وما أن تحين لحظة نزوله إلى الدنيا خارج الرحم حتى يبذل كل قوته ونشاطه ليقلب غالباً ليدفع برأسه وما أوتي من قوة للخروج، ثم يخرج من كتفه الأيمن أولاً، فجلت قدرة الخالق الذي يحب التيامن في كل شيء ثم ما أن ينزل حتى يصرخ من أجل تشغيل رئتيه لأن حياته الآن بحاجة إلى أوكسجين من الخارج، حتى يعمل قلبه بانتظام وتفتح شرايينه ويبدأ رحلة الحياة.

إن بعض علماء الوراثة الذين اكتشفوا بعد طول تعب وعناء في البحث ليصلوا إلى هذه الحقائق، حين علموا أن القرآن لفت أنظارنا إلى مراحل الجنين بدقة تفوق علومهم آمنوا بالقرآن وبالإسلام^(١) ومنهم العالم التايلندي الذي كان أكبر علماء العالم في التشريح في عصره.

(١) انظر الشعراوي، الأدلة المادية، ص ١٧٠ - ١٠٨.

أعصاب الجالدالة على عظمة الله

يقول الحق سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكَاذِبُونَ سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ ذَارًا لِّكُلِّ نَجَّاتٍ جُلُودُهُمْ
بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يَذْوُقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] ويقول
الحق سبحانه ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي سَلَاسِلٍ وَسُعُرٍ ﴿٥٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ
سَقَرٍ﴾ [القمع: ٤٧-٤٨].

ويقول الحق سبحانه ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴿٧٦﴾ لَا يَدْخُلُ عَنْهُمْ فِيهِ
مُبَشِّرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥].

جاءت الآيات تهدد الكفار المجرمين بعذاب الله تعالى والخلود في النار، مصيبة
ما بعدها مصيبة، فلو كان الأمر ينتهي باحتراق أهلها لانتهى الأمر بالنسبة للكفار،
ولكن الخلود مع تجدد العذاب بعد الاحتراق إذ يحيي الله عز وجل جسم الإنسان
الكافر ليحرقه مرة أخرى.

ويهان المجرمون بالإلقاء بهم على وجوههم في النار، وهو منتهى الإهانة
بالسحب على الوجوه وفي النار، واحتراق الجلد وبخاصة جلد الوجه نساءل الله
العافية. ولكن كيف لنا أن نتصور وأن نعرف والقرآن يُقرأ إلى قيام الساعة
وباختلاف مستويات الناس وعلومهم. وكلما زاد علم الإنسان بحقائق العلم في
خلقة الإنسان ومعرفة تشريح أعضائه، زادت معرفتهم بعمق المأساة، وبعظمة
الخالق الذي خلق الإنسان ووصف عذابه، فقد توصل العلماء إلى حقيقة علمية
تتعلق بجسم الإنسان إذ وجدوا أن الأعصاب هي التي تنقل الإحساس إلى الدماغ
ليشعر الإنسان بالحر والبرد والألم، ووجدوا أن الأعصاب التي تنقل هذا الإحساس

موجودة تحت الجلد^(١)، وبالتالي فإن ما يتعرض له الجلد تنقله هذه الأعصاب. ولذلك أكثر ما يشعر الإنسان مباشرة بمباشرة الألم أو الحر أو البرد أو الضرب إنما يكون بتعرض الجلد للضرب أو الحرق أو التبريد أو التسخين.

ولهذا إذ احترق الجلد استشعر الإنسان الألم، وإذا احترقت تلك الأعصاب لم يعد إحساس بشيء، ولذا فإن تعذيب الإنسان يكون أول لحظات التعذيب فيما يقع على الجلد من الضرب ويكون الإحساس بالألم كثيراً، فإذا ما زاد الضرب وتخلدت الأعصاب أو تلفت لم يعد شعور بالألم. ولذا لو كان التهليل الرباني بالعذاب يحصل مرة واحدة في احتراق الجلد بعد دخول الكافر في النار لاستهان الكفار بعد اكتشاف هذه الحقيقة العلمية، ولشعروا بأنهم يمكن لهم أن يرتاحوا بعد وجبة التعذيب الأولى.

ولهذا فإن الحق سبحانه حال بينهم وبين ما يمكن أن يربحهم فزاد تعذيبهم وقطع آمالهم في عدم استشعار العذاب والألم، فقال ﴿كَلِمًا نَّخِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتُهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] ليعيد إلى تلك الجلود مرة أخرى أعصابها لتشعر بالعذاب، وعلل تبديل الجلود الثالثة بالعذاب في قوله ﴿يَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي كي لا ينقطع العذاب بعد الاحتراق الأول للجلود، وليستمر مرة بعد أخرى، فكلما فضجت جلودهم أي طبخت بالنار بحيث فقدت الإحساس، عادت إليها الأعصاب ليعود إليها الإحساس بالألم والعذاب، فهو عذاب مستمر لأنه خالد. ولهذا أخبر الله تعالى أيضاً عن كونهم معذبون عذاباً خالداً فيها غير منته في جهنم بأن هذا العذاب لا يخفف عنهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّعِيرِينَ فِي عَذَابٍ مُّتَلَائِفٍ﴾ لا يُفَرِّقُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ

(١) انظر الشعراوي، الأدلة المادية، ص ١٠٩، ١١٠.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الذِّكْرِ الَّتِي نُنَزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَكَ تَحْفِيفٌ مِّنْ أَلَمِكَ﴾ [نور: ٧٤ - ٧٥] وتفتير الماء الساخن من أجل تخفيف حرارته ليحمله الجسم استحمماً أو شرباً. فإذا كان لا يقتر فلا يخفف عذابه من ناحيتين: من ناحية عدم تخفيف عذاب النار، ومن ناحية أخرى بعدم فقد الإحساس بالاحتراق بتبليد الجلود التي نضجت ليعود لها الإحساس من جديد بالألم. نسال الله لنا ولكم العافية.

وهناك حقيقة علمية أخرى من علم التشريح تقول: إنه لا وجود لأعصاب الإحساس في الغشاء المخاطي الذي يبطن الأمعاء حتى لا تشعر بالألم بسبب ما ينزل فيه من الطعام والشراب لتقوم بوظيفتها دون إحساس الإنسان بها، ولهذا فإن الله سبحانه ذكر في القرآن أنه إذا أراد إيقاع العذاب والألم الداخلي بالإنسان سقاه من جهنم ماء حميماً قطع الأمعاء، فيصل الإحساس بالألم عندما يصل إلى التجويف البريتوني ومنه إلى الطبقة الخارجية من البريتون التي تحتوي على الأعصاب المشعرة بالألم قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَّيِّنٍ يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كُنَّ هُتُوتًا فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

تخيّلوا أن معرفة هذه الحقائق العلمية جعلت أستاذ التشريح التايلندي «تاجاتان تاجاسن» يشهر إسلامه عندما علم بأن كتاباً لها نزل على سيدنا محمد ﷺ يقرر هذه الحقائق العلمية قبل أربعة عشر قرناً حيث قال: «أهذا الكلام قيل قبل أربعة عشر قرناً؟... إن هذه الحقيقة لم يعرفها العلم إلا حديثاً... ولا يمكن أن يكون قائلها بشراً... بل هي من الله سبحانه وتعالى.. حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا

الله وأن محمد رسول^(١).

فسبحان من خلق الجسم ومن خلق العذاب. ومن أنزل كتاباً هدد فيه هذا الإنسان بالعذاب وبمنتهى الدقة في الوصف، فجعل ما خلق دالاً على عظمته، وما وصف في كتابه دالاً على عظمته، ومعجزة دالة على صدق رسالة رسوله محمد ﷺ.

(١) المرجع السابق ص ١٠٨، ١١٠.

ترتيب الحواس في القرآن

دال على عظمة الله

أظهر التقدم العلمي في علم الأجنة أن ترتيب خلق الحواس على النحو الآتي:

الطفل عندما يولد يسمع ولا يُبصر. بل إن الجهاز السمعي للطفل يكتمل في البطن في الشهر الرابع من الحمل قبل اكتمال جهاز البصر، والطفل يسمع الأصوات وهو في بطن أمه، بينما حاسة البصر عنده لا تبدأ عملها إلا بعد خمسة عشر يوماً تقريباً بعد الولادة. وهذا يعني أهمية جهاز السمع على جهاز البصر؛ ذلك لأن التفاهم مع المحيط الخارجي يحتاج جهاز السمع أكثر من جهاز البصر على أهمية جهاز البصر، ولكن الذي يفقد الجهاز السمعي يعاني كثيراً وتصبح حياته في تعامله مع المحيط الخارجي أكثر ممن يفقد جهاز البصر.

ولهذا فإننا نجد اللامعين معرفياً من فاقد البصر الذين يسمعون كثيرون بينما ينذر أن نجد آخرساً لامعاً علمياً ومعرفياً. لماذا؟ لأن السمع هو أداة معرفة اللغة، ومعرفة اللغة هي أساس التفاهم والعلم وتحصيل المعارف، لذا يقال إن الذي يفقد سمعه قبل النطق لا ينطق وهي حقيقة علمية مؤكدة.

وقد قدم الأطباء المجتمعون في أحد المؤتمرات الطبية في القاهرة عام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف بحثاً فيه رسم لخريطة المخ من خلال ترتيب آيات القرآن الكريم التي تتناول ترتيب هاتين الحاستين، السمع والبصر في القرآن الكريم، ووجدوا أن الترتيب المكاني للسمع والبصر في القرآن الكريم كما هو بالضبط نفس الترتيب داخل مراكز البصر كما ثبتت في آيات القرآن الكريم أن صفة (بكم) تقع دائماً بين صفتي (صمّ وعمي) وهذا يدل على أن مركز البيان بين مركزي

السمع والبصر.

وأثبتت الدراسة العلمية نفس هذه الدقة في الترتيب إذ وجدوا أن في قلب المخ جهازاً يسمى الجهاز النطقي وهو الذي يحتوي على العواطف والغرائز ويتحكم بها، ومن هنا فإن البناء الوظيفي للمخ يكون قد اكتمل لأنه عبارة عن عقل وعاطفة فالسمع والبصر يمثلان العقل، ويأتي الفؤاد ليمثل العاطفة العاقلة. ليس هذا دالاً على عظمة الخالق الذي خلق ووصف ما خلق.

وجعل ذلك آية دالة عليه، وجعل الإنسان يصل إلى هذه الحقيقة علمياً بعد أربعة عشر قرناً من وصفها له في القرآن الكريم !.

واسمع هذا الترتيب القرآن الكريم قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

﴿وَاللَّهُ أَفْرَحُكُمْ مِنْ بَطْنٍ يُطْرِقُ أَمْسَيْنَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [التنحل: ٧٨].

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكلمة فؤاد في اللغة تدل على الطازج والناضج، فيقولون لحم فتيد أي مشوي وطازج؛ فالفؤاد هو حالة المعرفة الناضجة الطازجة للمدركات الحسية التي ينضجها العقل بالبناء المعرفي للدماغ، والناضج العاطفي للقلب المعبر عنه بالفؤاد.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ۝ إِنَّا عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ طُفْلِهِ أَمْشًا ۖ فَجَعَلْنَاهُ سَيْبًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنْ شَاكَرَ ۖ وَإِنَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١-٣].

بين السمع والبصر ومعرفة

الله في القرآن

ركز القرآن على أهم الحواس ذات الدلالة على حكمته في خلق هذا الإنسان ومعرفته، ومن هنا ركز على السمع والبصر ودورهما في المعرفة دون أن تعنيه الدراسة التشريحية لها؛ فهو ليس كتاب طب، ولكن لا يمانع من تلك الدراسات التي تخدم الإنسان بمعرفة خصائص هذين الجهازين ومراكزهما في الدماغ، ومعرفة طريقة علمهما مما يساعد على فهمهما وعلاجهما. وبما بلغت النظر إلى عظمة الخالق في تناوُلها في القرآن بمنتهى الدقة في الوصف والوظيفة فهو الخالق سبحانه الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. مما يجعل تلك الأبحاث العلمية متوافقة مع القرآن دالة على عظمة خلقه ودقة علمه، وبلغ صنعته وعنايته، طبقاً لقوله سبحانه ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] وقوله سبحانه ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وقد أبرز القرآن في ذكره للحواس قيمتها المعرفية والإدراكية إذ قصد إلى التأسيس المعرفي لهذا الإنسان المميز على الأرض بعقله، والمكلف بأداء الأمانة، والقيام بمهمة الاستخلاف في الأرض التي هي ميزة تفضيلية على سائر المخلوقات. وذكر أهم وسيلتين للمعرفة وهما السمع والبصر. وأكد دورهما في الهداية والاستدلال على الله سبحانه بلغت النظر لاستقبال هذين الجهازين لما يقعان عليه مما في السموات والأرض، فيما هو مسموع صوتاً لمدرَك حسي، ومسموع معرفة وخبراً، وما هو منقول عما لم يشاهده ولم يسمعه في وقته، وما هو مشاهد إيصاراً.

ولقد ذكر القرآن لفظ السمع ومشتقاته في القرآن في مائة وتسعة وثلاثين موضعاً من آياته، كما ذكر ماله علاقة بهذه الحاسة في مائة وسبعين موضعاً، فيكون المجموع ثلاثمائة وتسعة مواضع. وذكر حاسة البصر وألتها العين وما يتعلق بها في مائتين وأربعة وسبعين موضعاً.

وقد جمع بين السمع والبصر في مواضع كثيرة منها قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

﴿وَاللَّهُ أَفْرَحَكُمْ مِنْ بَطْنٍ أَمْهَنِيكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [التنحل: ٧٨].

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُوحًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

وفي هذه الآيات كما سمعنا جمع بين الحاستين السمع والبصر في الآيتين الأوليتين وأظهرهما، كما جمع بينهما وبين الفؤاد لأنضاج مدخلات الحاستين، إذ يشار إلى العقل بالفؤاد، إذ العقل هو الذي ينضج المحسوسات لتصبح مدركات عقلية، وإن كلمة فؤاد اللحم من اللغة شواء، ولحم فتيد ناضج شهي طازج، ولهذا عبر عن الإنضاج العقلي للمعرفة الحسية - العقل - فسماه الفؤاد.

وقد ذكر القرآن حاسة اللمس في موضع للدلالة المعرفية ولكنها ليست الأصلية في الإدراك، وإنما مؤيدة ومؤكدة ومقوية من التمكن من الإدراك البصري في قوله تعالى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَانٍ فَلَسَوْهُ بِإِذْيِهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِلهٌ مُرْسِيٌّ﴾ [الأنعام: ٧]. فاللمس هنا مؤكد للإبصار للمبصر، وهو عوض عن البصر

لغير البصر إذ يعوّض الإحساس بالبصر بالإحساس باللمس.

واللافت للنظر في الحديث عن الحواس وعن أهمها في القرآن خلافاً لما قدمته الفلسفات البشرية قبل نزول القرآن والتي تخلصت عن الحواس فيما هي مهمة لحفظ حياة الإنسان فرتبتها على غير ما رتبها القرآن؛ ذلك لأن القرآن كتاب هداية ومعرفة، وليس كتاب أحياء، فركز القرآن في آياته على السمع والبصر أدوات للإدراك والمعرفة للنظر فيما تجلبانه في معروضات الكون وتاريخ الإنسان مما تصعب معرفته بدونهما، إذ لا غناء عنهما في الإيمان بالله، والنظر في أدلة عظمته، وسماع وحيه، إذ بوجودهما توجد المعرفة وأعلى أنواع معرفة الله سبحانه والإيمان به، وبأداء وظيفتهما يمكن للعبد معرفة ما يرضي ربه وما يغضبه، فيطيعه فيما أمر وينتهي عن معصيته فيما نهى. وهذا مناسب لغاية القرآن ومقاصده في دعوته البشر لهدايتهم ولعبادته، لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ .

ومن هنا كانت نعمة التعلم بأدواته من السمع والبصر قرينة نعمة الخلق على

الإنسان قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْهَمَ الْإِنسَانِي جِبْنَ مِنْ الْأَهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ ① ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ ② ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ ③ [الإنسان: ١ - ٣]. وقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ④ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ⑤ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ⑥ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ⑦ ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ⑧ [علق: ١ - ٥]. وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ① ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ② ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ ③ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ④ [الرحمن: ١ - ٤] .

حكمة تقديم السمع على البصر في القرآن

إذا تتبعنا آيات القرآن الكريم في السمع أو ما يدل عليهما كحاستين وما يتعلق بهما لمجد في أغلب الآيات وأكثرها، يقدم الله سبحانه فيها السمع على البصر، ولا شك أن في هذا التقديم ما يدل على عظمة الخالق في خلق هاتين الحاستين وعظمة إعجاز كلام الخالق في تناولهما. وما جعل البشر في أبحاثهم العلمية في التشریح بعد أربعة عشر قرناً ونيف من نزول القرآن يجدون آيات العلم الدالة على عظمة آيات الخالق في حكمة وخلفه، وعلى عظمة بيان الخالق في إعجاز كتابه، حيث ثبت علمياً طبعاً وتشریحياً أن اكتمال جهاز السمع عند الجنين في الشهر الرابع، وهو متقدم زمناً على اكتمال جهاز البصر عنده، وأنه عند الولادة يسمع الأصوات بينما لا يعمل جهازه البصري إلا بعد خمسة عشر يوماً من ولادته تقريباً.

فلماذا جاء هذا الترتيب خلقاً؟ ولماذا جاء الترتيب في القرآن الكريم نظماً كذلك غالباً؟

نعم: لقد كان المقصد من هذين الجهازين المعرفة والإدراك الدالين على أعظم المعرفة، وهي معرفة الله سبحانه. وأن السمع هو الجهاز المعرفي أو الآلة المعرفية الأهم في تحصيل المعرفة والتمكن من أدواتها الأولى وهي اللغة، بينما البصر يتبعه في ذلك.

إن الظاهرة العلمية لهذا الترتيب لهاتين الحاستين السمع أولاً والبصر ثانياً في كل المواضع القرآنية باستثناء ستة مواضع فقط. قدم فيهما البصر وماله علاقة به على السمع وماله علاقة به.

وهذا يجعلنا نبحث عن التوجيه لهذه الظاهرة العامة، وعن التوجيه لما جاء

خلافاً لها في المواضع الستة المذكورة على التفصيل الآتي:

أولاً: ما ورد في القرآن من تقدم السمع على البصر لغوياً هو أن المذكور أولاً أهم من المذكور ثانياً حتى ولو كان حرف العطف ليس حرفاً يقتضي الترتيب. وقد جاء هذا الترتيب بتقديم السمع على البصر في القرآن قاعدة مضطردة. ومن تلك المواضع قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ بِمَلِكٍ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْغَمَّ مِنَ النَّاسِ وَخُفِّجَ الْمَوْتَ مِنَ النَّاسِ وَمَنْ يُدِيرِ الْأُمُورَ قَسِبُوا لِلَّهِ فَعَلٌ أَكْبَرُ لَلْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣١]. وقوله:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقوله ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملک: ٢٣].

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِيهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُوحًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَآبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٦].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَنْ قُلُوبِكُمْ قُلْ إِنَّ اللَّهَ غَيْرُ الْغَافِلِينَ يَوْمَ تَنْظُرُ حَتَّى تَصْرِفَ أَلْيَدَكَ تَصْرِفَ لَكُمُ الْبَصَائِرَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأَنْعَام: ٤٦].

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْثَوْنَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَيْبَرَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [التحل: ١٠٨].

﴿إِنَّا عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتِئِهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [٢] إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا مَنَّا كُفُورًا ﴿[الإنسان: ٢-٣].

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

فالسّر واضح في هذه الآيات من أن السمع مقدّم على البصر، وهو أهمّ منه في الحياة الدنيا، حياة التكليف ولأن فيه إقامة الحجة؛ إذ السمع أوسع دائرة في تجميع المدرك الحسي في الهواء من جميع الجهات من البصر الذي لا يرى إلا ما يقابله، ولا ينقل إلا ما تقع عليه الأعين وما يقابلها.

والسمع أكثر تجميعاً إذ الأخبار والكلام والرواية والقصص كلها مسموعات والأخبار لا تُرى أو إذ قرئت في الكتب والمشاهدة فيكون نقلها بالسمع. فالسمع يجمع بين الحاضر والماضي والأخبار عن المستقبل، بينما البصر مملود فيما يراه الإنسان ويشاهده في الزمان الحاضر. ولهذا السر كانت معجزة الرسول ﷺ طبقاً لعالميته دعوته معجزة سمعية، أي قرآناً يتلى ويسمع في كل زمان ومكان، وهو خالد في استماع الناس له إلى قيام الساعة بينما معجزات الأنبياء والرسالات السابقة الخاصة كانت معجزات مرئية مبصرة؛ لأن رسالاتهم كانت خاصة ولذلك

كانت معجزاتهم مقتصرة على من يشاهدها. فجهاز السمع أعم وأطول وأشمل في مداه وفي زمانه من البصر.

قال الإمام الرازي رحمه الله: «السمع أهم في توصيل نتائج العقول إلى الغير فكأنه سبب لاستكمال العقل بالمعارف والبصر لا يوقفك إلا على المحسوسات أي المشاهدة من فعل ما ينقل القرآن من قصص الماضيين من أخبار وما يأمر به من أقوال وأفعال، وما يخبر به عن الله وعن الآخرة فمرده السمع لا البصر»^(١).

والسمع يعمل ليلاً ونهاراً في الضوء وفي الظلمة وفي البعد والقرب على عكس البصر الذي لا يعمل إلا في النهار والضوء والمعاينة بالإشعاع، ولإظهار هذا المعنى يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَتَمَنُّونَ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ نَوْمًا وَإِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَمْ يَأْتِيَكُمُ الْيُسُوءُ فَقُلْ لَا تَسْمَعُونَهُ ﴿٧٢﴾ قُلْ أَزَمُّ بَشَرًا إِنْ يَجْعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَكْنًا وَإِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَمْ يَأْتِيَكُمُ الْيَلِيلُ فَتَنْكُرُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [التقصص: ٧١ - ٧٢] فعقب سبحانه بحاسة السمع عند ذكر نعمة الليل تذكيراً بهذه النعمة عند الافتقار إلى النور والضياء أي في الظلام، وعقب بالتنبيه على نعمة النهار بالبصر لأن البصر لا يعمل في الظلام.

ألم ترى معنى أنك إذا أيقظت إنساناً من نومه فإنه يسمعك أولاً قبل أن يفتح عينيه ليبصره؟!.

ثانياً: أما المواضع التي خولفت فيها هذه القاعدة في القرآن فقدم فيها البصر على السمع، فهي مواضع ليست معرفية في عالم التكليف، وإنما هي في الآخرة، إذ هنالك في الآخرة نعمة الإبصار ولذة ما يرى الإنسان أهم مما يسمع، إذ لا تكليف

(١) الرازي، التفسير الكبير تفسير سورة القصص.

هناك بالإخبار عن الغيب، فهو مستمتع بما يبصر ويشاهد لا بما يسمع. ولذا كان أعلى أنواع السعادة لذّة النظر إلى وجه الله الكريم سبحانه. ولهذا كان عذاب المعطلين لأبصارهم في الآخرة جزاء لما عطلوها في الدنيا فتناسب أن يكون الجزاء من جنس العمل بأن يحرمهم الله نعمة النظر إليه، قال تعالى فيهم ﴿وَلَمْ يَأْتِ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَمْ يَأْتِ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] إذ الأنعام نعمة الأبصار عندها مقلّمة على السمع لأنها ليست مكلفة، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَنْعَامِ وَالْأَنْعَامِ وَالْبُخَيْرِ وَالسَّيِّعِ﴾ [هود: ٢٤].

وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقال في شأن من ندم في الآخرة بعد رؤيته للعذاب لما في قوله تعالى عنهم ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] فسبحان من خلق وهدي، وقدم وأخر.

الشمس آية دالة على الخالق

لا يملك أحد أن ينكر وجود الشمس وعظمة وجودها وأثرها في الحياة الإنسانية وحياة النبات. وهي في ذاتها وتركيبها آية دالة على الخلق الذي خلقها ونظم أمرها وهو يُزَوِّدُها باستمرار مما يجعلها آية نافعة وضرورية للحياة فما هذه الشمس؟

فقد ثبت لدى علماء الفلك علمياً أن الشمس فرن ذري رهيب وعظيم، ومصنّع للطاقة لا مثيل له، ولا يملك بشر أن يخلقه على هذا الحال. «فهو يُحوّل في كل ثانية خمسمائة وسبعة وثمانين مليون (٥٨٧) طناً من الهيدروجين إلى خمسمائة وثلاثة وثمانين (٥٨٣) مليون طن من الهيليوم، وما يتبقى من الطاقة هو أربعة ملايين طن يقذفها هذا الفرن إلى خارج الشمس على شكل إشعاع نضيئنا منه نحن في الأرض جزءاً فقط من مليار جزء من الإشعاع وقطر الشمس هو ثمانمائة وأربعة وستون ألف (٨٦٤,٠٠٠) ميلاً وهي تحتوي قريباً من بليون متر مكعب من الغازات المختلفة الساخنة جداً. ووزنها أكثر من ألفي كواكب بليون طن - والكواكب بليون رقم مؤلف من واحد إلى مئتين وخمسة عشر صغراً - ويتنقل الضوء المرئي وغير المرئي من الشمس بسرعة ثلاثة وتسعين مليون ميل في ثماني دقائق ونصف الدقيقة^(١). فمن الذي خلق هذا الجرم الرهيب وبهذه المواصفات؟ إنه الله سبحانه.

ثم تعال معي لأقسام الشمس التي تتركب منها فهي^(٢):

(١) ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، البرهان الواحد والعشرون، ص ١٤٤.

(٢) المرجع السابق ١٤٤ - ١٤٧ بتصرف واختصار.

١. **قلب الشمس** أو نواتها وهي مبعث الطاقة الهيدروجينية التي يتم فيها الانصهار وتحويل الهيدروجين إلى الهيليوم، وبدرجة حرارة تصل إلى أربعة عشر مليون درجة مئوية. ومن شدة تلك الحرارة تحصل زوابع ودوامات حرارية هوائية، وهي التي تتأثر بها الأرض، وهي من نوع أشعة جاما المتصاعدة من على سطح على مسافة ثلاثمائة ألف ميل من جميع الجهات. ورغم هذا كله فهذا القلب للشمس لا ينهار، وهو يزود باستمرار للتوالي وتستمر عملية الانصهار الدائم والانفجارات النووية الدائمة. فَمَنْ الذي يزودها ويخلق في نواتها ويجدد هذا القلب بحيث لا ينضب غزونها؟ إنه الله سبحانه الذي أراد لها أن تنتهي لإذناً منه يوماً ما بقيام الساعة. فيوقف هذا التزويد ليبدأ يضمحل حجم هذه الشمس، وينضب ما فيها حتى تصبح أصغر من الأرض، وستبرد وأخيراً تنطوي جذوتها وتصبح سوداء باردة، وهذا ما يقوله علماء الفلك، ويتنبأون به علمياً. ولا تستغرب أن هذه الحقيقة العلمية التي يقررها العلماء قد أدهشهم ما قرره القرآن الكريم فيما الخالق لنا سبحانه عن نهاية هذه الشمس بقوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] أي لُفَّت وذهب نورها، ثم انتشرت في الفضاء الخارجي، ويصفها الله تعالى بقوله ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٢] أي انقضت مهمتها وسقطت.

٢. وأما القسم الثاني للشمس فهو **مصنع الطاقة** الذي يتم فيه التفجير.

٣. والثالث هو **الكرة الضوئية** وهي الطبقة المضطربة، وسمكها ثمانون ألف ميل، تخرج وتثور باللسنة اللهب المضطربة. والله سبحانه يحكمته بحمي درب الثبابة من أن تلتهمه بظاقتها المخيفة. وعلى هذه الكرة يقع شمسية وهي عواصف مغناطيسية مختلفة في مساحاتها، حرارة بعضها تصل إلى (٤٦٠٠) أربعة آلاف

وستمائة درجة مئوية، بينما حرارة الشمس خمسة آلاف وخمسمائة درجة مئوية. وفائدة هذه البقع للتأثير على الإذاعات اللاسلكية ولها علاقة بمادة الكولوروفيل الضروري للنبات.

٤. وهناك القسم الرابع وهو **الطبقة القرمزية اللون**، وعمقها عشرة آلاف ميل، وتمثل جو الشمس الكثيف، ومكونة من الهيدروجين على هيئة أقواس قد يصل ارتفاعها إلى ثمانية وأربعين ألف كيلو متر وطول وتر القوس أكثر من مائتي ألف كيلو متر.

٥. وهناك القسم الخامس **الإكليل الشمسي**، وهو جوها الخارجي اللامع الذي لا يمكن رؤية الشمس من النظر إليه إلا كشكل القرص، وهو الذي يضيء المجموعة التي تبلغ عدد نجومها ما يزيد على المليار نجم.

فمن الذي خلق الشمس وركب أقسامها وزودها؟ هل يملك بشر أن يزعم أنه فعل ذلك أو أنها خلقت نفسها بنفسها؟ إنه الله الخالق سبحانه ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّعَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَرْضَ يَفْصِلُ الْأَنْبِيَاءَ لَكُمْ يَلْقَاوَكُمْ تَوْفِئُونَ﴾ [الرعد: ٢٠].

الحديد آية دالة على عظمة الخالق

هل تعلم أن الحديد الذي هو نعمة من نعم الله عز وجل للإنسان، لما يصنع منه أسلحته ويبنى بنيانه، ويصنع معظم أدواته؟ وأن هذا الحديد أنزله الله تعالى من السماء فمصانعه في السماء قبل أن تكون تضييعاته في الأرض من قبل الإنسان؟

وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة العلمية في القرآن قبل أن يكشفها الإنسان لقد لاحظ العلماء أن ذرات من الحديد تنزل من السماء مع الثلوج النازلة في شمال سيبيريا. وتساءلوا من أين جاءت هذه الذرات؟ فالمام المتجمد في السماء مام نقي فمن أين اختلطت به هذه الذرات من الحديد، ومن أين جاءت؟ ووجدوا بالبحث أنها من مخلفات الشهب والنيازك التي يحيلها الغلاف الجوي للأرض إلى رماد. ولقد ذكر العالم «آرثر بيرز» في كتابه الأرض أن النيازك أقسام ثلاثة^(١): نيازك حديدية مكونة من ثمانية وتسعين في المائة فيها من الحديد والنيكل، ونيازك حديدية نصفها من الحديد والنيكل ونيازك حجرية فيها نسب من المعدن، وهذه النيازك في الفحص الإشعاعي لها وُجد أن عمرها قبل عمر الأرض.

ولقد اكتشف العلماء أن شهاباً قد سقط على الأرض في ولاية «أيرزونا» فحفر في الأرض حفرة عمقها ستمائة قدم وقطرها أربعة آلاف قدم ومعه شظايا من النيكل الممزوج بالحديد ما زالت مبعثرة في المكان. وكان في هذا النيزك آلاف الأطنان من الحديد من مجموع وزنه البالغ تقريباً ثمانية آلاف وخمسمائة طن، وهذه النيازك تتساقط باستمرار من السماء على الأرض، وقد تحمل سبائك من الحديد والنيكل تبلغ أطناناً، وهي في مجملها مقذوفات فلكية من ذرات مختلفة الأحجام. ولقد ثبت أن الحديد هو أول المعادن التي عرفها الإنسان على وجه الأرض.

تري بعد أن اكتشف العلم أن مصدر الحديد هو من السماء وليس من

(١) ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، البرهان الثاني والعشرون، ص ١٤٩.

الأرض ألا يتعظ هذا الإنسان ليعلمن إيمانه بالخالق سبحانه الذي خلق هذا الحديد في السماء، وأنزله على الأرض؟ وقد أشار الله سبحانه إلى هذه الحقيقة قبل أن يكشفها الإنسان بأربعة عشر قرناً في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَشْكُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

بل جعل سورة من سور كتابه العزيز تحمل اسم هذا المعدن وهي سورة الحديد. فالحديد سورة وآيات ربانية قرآنية وآية كونية كلاهما دالة على عظمة الله سبحانه.

ويؤكد هذه المعلومة الإعجازية في القرآن ما توصل إليه العلماء^(١) حيث يقول الدكتور «استروخ» وهو من أشهر علماء وكالة ناسا الأمريكية للفضاء: لقد أجرينا أبحاثاً كثيرة على معادن الأرض وأبحاثاً معملية... ولكن المعدن الوحيد الذي يغير العلماء هو الحديد، فذرات الحديد لها تكوين مميز، إن الإلكترونات والنيوترونات في ذرة الحديد لكي تتحد محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية. ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد على الأرض، ولا بد أنه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها فلما ترجعوا له معنى الآية الكرمية ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ قال: إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون من بشر. فسبحان من خلق الحديد وسبحان من أنزل سورة الحديد، وسبحان من جعله آية دالة على عظمة الله خلقاً وتنزيلاً و﴿على من أنزل الله عليه الآيات، وأوحى إليه في سنته فقال عليه الصلاة والسلام: أنزل الله أربع بركات من السماء، الحديد والنار والماء والملح﴾.

(١) انظر: الشعراوي: الأدلة المادية على وجود الله ص (١١٩، ١٢٠) وانظر ابن خليفه عليوى، سبعون برهاناً، ص ١٤٩ - ١٥١.

البحار آية دالة على الخالق سبحانه

لفت الخالق سبحانه أنظار عباده لبروا آياته في الكون المشهود، وأخبرهم بآياته المتلوة المليئة بالحقائق الدالة على وجوده. قبل أن تصل عقولهم وأبحاثهم وعلومهم إلى هذه الحقائق. فإذا ما وصلوا إليها فمن المفروض أن يزداد يقينهم بعظمة خالقهم سبحانه إذا كانوا مؤمنين، وإن كانوا غير مؤمنين فإن الحجة تقوم عليهم ليعيدوا النظر فيما هم عليه من كفر وظلام وجاهلية ليخرجوا منها إلى الإيمان والإسلام والنور.

وتعرض هنا للبحار وما فيها من آيات دالة على عظمة خلق الله لها سبحانه: لاحظ العلماء حقائق تحكم علاقة البحار فيما بينها من حيث أن مياه كل بحر تختلف في مواصفاتها من حيث الكثافة والملوحة عن البحر الآخر، فإذا ما اتصلت البحار بعضها ببعض في أطرافها وجدوا أن مياه البحار لا تختلط ببعضها رغم التقائها، وتحتفظ كل كتلة مائية لكل بحر بخصائصها من الكثافة والملوحة والحرارة والأحياء المائية وسائر الخصائص.

ولهذا قام علماء غوصون في علوم البحار عام ١٩٦٢ باختبار المياه في مضيق باب المندب حيث يلتقي البحر الأحمر بالمحيط الهندي، وأخذوا يقيسون ويفحصون خصائص الماء لكل من البحرين عدة أشهر، فوجدوا أن ثمة خطأ واحداً يفصل بين المائتين، وأنه متحرك حسب هبوب الرياح الموسمية، فهو في حالة هياج واضطراب ذهاباً وإياباً، وهنا الحاجز يرى واضحاً بالعين المجردة، فانظر في مصب أي نهر في بحر وهو واضح جداً في مصب نهر الأردن في البحر الميت المعروف بشدة ملوحة مائه وكثافته، فإنك تجد الحاجز واضحاً لمسافة كبيرة دون أن يختلط ماء النهر بماء البحر، وكذلك فإن ماء البحر يدخل النهر عند حدوث حالة المد، ولكن ماءهما لا يختلطان، فيبقى ماء البحر مالحاً وماء النهر عذبةً.

وهذه الظاهرة مفسرة علمياً بما يسمى **بقانون الله السطحي** حيث يختلف تجاذب الجزيئات من سائل لآخر، فيحتفظ كل سائل باستقلاليته في مجاله وخصائصه. ولقد لفت القرآن نظر الناس إلى هذه الآية الكونية الدالة على عظمة الخلق سبحانه فقال في محكم التنزيل: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِي أَوَّلَهُمَا رُجُومًا كَتَاكِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الرحمن: ١٩-٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمْلِحُ لِحَاجٍ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ بَيْنَ الْمَاءِ بَشْرًا فَجَعَلَهُ نَبَاً وَبِشْرًا وَكَانَ رُجُلُهُ قَدِيرًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٥٣-٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَمْلِحُ لِحَاجٍ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيحًا وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا نَاقَةً تَلْسُوتُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ يَلْعَبُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل: ٦١].

وفيما تشير إليه بعض الآيات إلى الأنواع المختلفة من الحيوانات ذات اللحم الطري لأنها تعيش في الماء، وأن هذه الحيوانات بعضها أركى من بعض، فما يعيش في البحار المالحة أسهل هضماً مما يعيش في مياه الأنهار العذبة.

ولقد ذكر علماء البحار حين صوروا أعماق البحار أموراً عجيبة في الحواجز التي تفصل بينها، حيث صوروها من الأقمار الصناعية فوجدوا أن البحار على هذه الأرض ليست واحدة، وليست موحدة في تكوينها المائي، بل هناك حواجز بينها، واختلافات واضحة في درجات حرارة مياهها وفي ملوحتها، ونسبة الأوكسجين

فيها، وفي ألوان مياهها، ولذلك عبروا عن أسمائها وألوانها فقالوا: البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والبحر الأسود، والأزرق.

فسبحان من خلقها بمواصفاتها وخصائصها وألوانها مع أنها مخلوقاته الواحدة في جنسها، ليدل ذلك كله على عظمة الخلق والخالق ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

ولذلك لما سمع بعض علماء البحار أن القرآن قد أشار على هذا قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من وصول العلماء إلى هذه الحقائق العلمية قالوا عن القرآن إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون كلام بشر.

ظلمات البحر آية دالة على الله

يضرب الحق سبحانه ما عليه الكفار من ظلمة الكفر مثلاً بظلمات البحار في أعماقها وتلاطم أمواجها موجاً من فوق موج، وما فيها من سحب من فوقه ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض. وهكذا فإنه لا يخرج من هذه الظلمة إلا نور الحق والهادي له من الله، وأن من فقد هذا النور الهادي فليس له نور يهديه، بل هو كمن في الظلمات. ولنستمع إلى قوله تعالى يصور تلك الحقائق لظلمات البحر في قوله سبحانه: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَتَنَسَّهَ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ سُدَّهُ لَزَّتْ بِكُلِّ فِجْءٍ وَتَنَزَّلُ الْمَظْلَمَاتُ ظُلُمَاتٌ لَّهُ تَوَارَكَ مَحَاطُهَا إِنَّ نُورَ اللَّهِ مِنْ نُورِهِ﴾ [التنوير: ٤٠].

ولنستمع إلى ما يقوله علماء البحار في أمثالهم وتجاربهم وتصويرهم لطبقات البحار وأمواجها في الأعماق المظلمة تحت الأمواج السطحية وإلى المناطق المليدة بالسحب والغيوم التي تحجب ضوء الشمس مما وصفه الله تعالى في كتابه قبل أن تصل إليه العلماء.

اكتشف العلماء الإسكتلنديون عام تسعمائة وألف ميلادية أن هنالك أمواجاً داخلية في المحيطات غير الأمواج السطحية التي نراها بواسطة الصور من الأقمار الصناعية، وأن طول هذه الأمواج الداخلية يصل إلى عشر كيلو مترات، وأن سمكها يصل آلاف الأمتار، وأن المسافة بين الموجة والموجة المجاورة لها في الأعماق قد تبلغ ثلاثة إلى أربعة كيلو مترات وأن هذه الأمواج لا توجد إلا في المحيطات المظلمة حيث تبدأ ظلمة البحر على عمق متني متر، وكلما زاد العمق زادت الظلمة حتى تصبح ظلمة مطلقة على عمق ألف متر؛ إذ يستحيل وصول ضوء الشمس إلى تلك الأعماق بسبب تراكم المياه والأمواج الداخلية والخارجية، وبسبب الغيوم

الكثيفة التي تشكل من السحب التي تحجب ضوء الشمس.

وهذه المنطقة العميقة هي الطبقة الثالثة في تقسيم طبقات البحر كما يصطلح عليها علماء البحار، حيث هناك الطبقة الأولى السطحية لمياه البحار وهي المتعرضة لضوء الشمس، والطبقة الثانية وهي طبقة الأعماق الضحلة العميقة من الشواطئ. أما الطبقة الثالثة فهي العميقة في عرض البحر حيث تعيش الأسماك الضخمة التي تسبح وتتحرك بحرية مطلقة وبقوة ويتكيف مع ظلمة البحر في الأعماق.

فهي كما توصل العلماء إلى ذلك تتكيف لتعيش وتحصل طعامها ولتحمي نفسها من أعدائها، ففيها قابلية تغيير ألوانها بحسب لون الماء الذي تعيش فيه حتى لا يراها أعداؤها. وهي تستطيع أن تتحرك في ذلك الظلام الدامس، كما وصفه القرآن ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْفُؤَهُ نَبَّدَ بُرْتَعًا﴾. ولذلك جعل الله فيها قدرة على إطلاق أضواء تهللها، ولكل منها طريقة في إطلاق هذه الأضواء حيث وصفها العالم (جورج. ل. كلارك) بأنها تبعث أضواء تشبه عروض الألعاب النارية إذ تطلق ومضات الضوء بمعدل خمس ومضات في كل ثانية، وبعضها مثل سمك أبو الشص تجوب البحر بحثاً عن صيدها (١٥٠٠) ألف وخمسمائة متر وتمد أمامها قضيباً يبلغ طوله ضعف طول السمكة يتلألأ عند حافته عضو وضاء. وهناك أسماك يكون عضو الإضاءة داخل فم السمكة خلف أسنانها، وبعضها تحمل بكتيريا مضاءة تحت أعينها. ويقول (جان بيكار) بعد أن هبط بغواصته إلى عمق أحد عشر كيلو متراً (١١) كم في هوة ماريانا: إن أعماق البحار تشبه السماء ذات النجوم المتلألئة بسبب الأسماك المضيئة.

وجاء في كتاب «البحر المحيط» بنا (لرسل ل. كارسون) أنهم كانوا يرون وهم يبحرون خارج منحدرات شواطئ الترويج حيوانات الأخطبوط على طول أميال متعددة في المياه السطحية، وكأنها بالونات مضيئة شبيهة بمصابيح تضيء وتطفئ

وأن هناك إضاءات فسفورية في الأعماق المظلمة، وأن هناك ضوءاً عارضاً يعادل ضوء القمر في لمعانه.

فسبحان من خلق البحر، وخلق ما فيه من الحيوانات.

وسبحان من هدانا لتسهيل عيشها وكسب رزقها، وحماية نفسها والدفاع عن وجودها.

وسبحان من هدانا بإطلاق أنوارها وإضاءاتها.

وسبحان وصف هذه الحقائق لجعلها مثلاً لمن اهتدى إلى نور الإيمان: ﴿وَمَنْ لَّ

يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَّا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [التنوير: ٤٠].

ملوحة المياه وعذوبتها آيات دالة على الله

والمياه إما مالحة وإما عذبة، وتباين ملوحة المياه في البحار. والملوحة هي وجود مركبات كيميائية ذات طعم مالح من كلوريد الصوديوم والمغنيسيوم والكالسيوم وسائر المركبات والعناصر المالحة.

وقد حاول العلماء على مر تاريخ العلوم لتعليل ملوحة البحار والبحيرات المالحة. وتراوح نظرياتهم في أن أسباب هذه الملوحة هو التآكل التدريجي لسفوح الجبال بفعل الجليد والتحات والعوامل الجوية، مما ينشأ عنه بعض الكيماويات التي ينشأها ماء المطر، وتحملها الأنهار إلى المحيطات والبحار. وأما باقي أملاح البحر فتأتي من الصخور الموجودة في قاع المحيط^(١).

ولاشك أن أملاح البحار ذات قيمة كبيرة في تزويد الناس بالملح سواء ما كان منه ملح الطعام الضروري لحياة الإنسان أو الأملاح الأخرى اللازمة لسماذ النباتات والصناعات الأخرى. فالأملاح نعمة مفيدة لحياة الإنسان، كما أن هذه الملوحة للبحار مفيدة جداً للحفاظ على الثروة السمكية حتى لا تتعفن الأسماك وتهلك لو كانت المياه عذبة. فالأملاح ذات فائدة عظيمة في التعقيم للمياه وحفظ الموجودات فيها من التلف.

ولقد قدر العلماء أن مياه البحار تحوي في داخلها ما لا يقل عن أربعة ملايين ونصف المليون ميل مكعباً من الملح.

فمن أين تأتي هذه الكمية الهائلة؟ هل هي فعلاً فقط مما يتسرب إليها من تحات الجبال مع الأنهار؟

(١) انظر التفاصيل، ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، البرهان الثاني والخمسون، ملوحة البحار ص ٢٩٤ - ٣٠٠.

إن هذه النظرية غير قادرة على تفسير وجود هذه الكميات الضخمة جداً من الملح في البحار. ولذا علل بعض العلماء أنها جاءت من براكين من أعماق جوف الأرض خرجت بالنشاطات البركانية تحت البحار.

ولكن هذه النظرية غير كافية أيضاً لهذا التعليل، إذ ثمة بحيرات كبيرة هي بمثابة بحار، وهي عذبة فلا تجعلها تسريات مياه الأنهار مالحة، ولا تحمل إليها أملاح الجبال، ولا هي مالحة بفضل النشاط البركاني، ومنها البحيرات الخمس في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي من البحيرات الخمس عشرة العذبة في العالم. وكل هذه البحيرات عذبة وصالحة للشرب والري. ومع ذلك فثمة بحيرات أخرى مالحة بل شديدة الملوحة مثل بحيرة جريت سولت ليك (Grate Salt Lake) وبحر قزوين، وبحيرة لوط (البحر الميت)^(١).

فما التعليل الحقيقي للملوحة البحار وبعض البحيرات وعذوبة المياه في بعض البحيرات في مناطق أخرى؟

يقول العلماء الكيميائيون الطبيعيون أن ماء النهر العذب أخف من ماء البحر المالح، ولذلك يطفو الماء العذب على وجه ماء البحر المالح ولا يختلط به. وعلى حد زعمهم هذا ينبغي أن ينطبق على جميع البحيرات العذبة التي تصب فيها أنهار تحمل أملاحاً ألا تختلط مياه الأنهار بمياه البحيرات، فإما أن تلك الأجزاء الملحية التي تحملها مياه الأنهار ترسب في البحيرات، وتذوب شيئاً فشيئاً فتصبح مياه البحيرات العذبة مالحة، وإما ألا ترسب وتذوب فتطفو على سطح الماء، ومع ذلك فإننا لا نرى ولا نجد هنا الافتراض ولا ذاك، بل تبقى البحيرات العذبة على عذوبتها، والمالحة على ملوحتها، إذن: فمن الذي يمنع من ملوحة البحيرات العظيمة العذبة التي تصب فيها الأنهار التي تحمل أملاح الجبال بل تبقى عذبة مع

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٧.

أنها حسب منطق العلماء يجب أن تصبح مالحة أشد من ملوحة البحار لأنها صغيرة المساحة بالنسبة للبحار الكبيرة؟

ولا يجيب على هذه الأسئلة إلا الإيمان بعظمة الخالق سبحانه وتعالى الذي خلق الماء والبحار، وهو الذي نَوَّعَ المياه فجعل منها ما هو عذب فرات سائغ شرابه، وجعل منها ما هو مالح أجاج، حتى تستقيم حياة الإنسان بالماء العذب للشرب، والماء المالح لحياة الأسماك ولسائر استعمالات الأملاح وفوائدها للملاحة. وهذا التخصيص لمياه بالعدوبة ولأخرى بالملوحة، هو حكمة رب له إرادة تخص المخلوقات بالمضادات من الصفات قال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [التقصص: ٦٨] وهو ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [نعمان: ٣٤] و﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣، ١٢٨، ١٣٩]. ولنستمع إلى هذا السر في قوله تعالى مُعْلِلًا ظاهرة ملوحة مياه البحار وعدوبة مياه بحار أخرى بما يعجز العلم عن تعليله الكافي رغم فرضياته المختلفة قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَمِلُحٌ أجاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَالُكُلٍ لَحْمٌ طَرِيحٌ وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا نَافِلَاتٍ لِّبَنَاتِكُمْ بِغُلَامِكُمْ وَالْحَيَّاتِ وَتَوَارِيهِمْ وَفِى هَذَا لَآفَافٌ مِنْ ذُرُوعٍ وَنَخْلٍ ثَمَّارٍ﴾ [فاطر: ١٢].

ويجعل الله تعالى عدوبة الماء للشرب نعمة يمن بها على الإنسان، وآية دالة على وجوده وقدرته وإرادته، وحكيم صنعه ولطفه فيقول ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْتُهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٨ - ٧٠]. إذن التفسير الوحيد هو أن الله تعالى يحكمته جعل الماء منه ما هو عذب ومنه ما هو مالح. وكل تفسير سوى ذلك قاصر ولا يعطي التفسير اليقيني الصحيح.

عجائب مخلوقات البحر دالة على عظمة الله

مخلوقات الله دالة على وجوده، وما فيها من دقة وهداية دالة على علم الله سبحانه وتعالى وإرادته وحكمته قال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الْذِي أَنْفَعَكُمْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

ذكرنا فيما مضى عجائب خلق الله في المخلوقات البرية، ونحدث اليوم عن هذا الوسط الذي يعطي المساحات الكبيرة من الكرة الأرضية وهو وسط البحار، في أعماق هذا الماء الذي هو ظلمات بعضها فوق بعض. وهو يحوي سلة غذائية احتياطية كبيرة وغنية لهذا الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]. واللحم الطري هو السمك الذي يعيش في البحار رغم ملوحتها، فإن هذه الملوحة الحافظة للأسماك لا تتسرب إلى لحم الأسماك، فلحومها ليست مالحة، ولا تمتص ملوحة البحر ولا تتأثر بها، وإلا لما استساغ الإنسان أكل شيء من لحوم الأسماك، ولما انتفع من هذا الغذاء الشهى بشيء. وهذه آية من الآيات الدالة على عظمة الخالق سبحانه.

ثم تعال إلى ما لا نستطيع إحصاءه من المعلومات من عجائب قدرة الله في هذه المخلوقات البحرية.

ونستطيع أن نقبس نماذج بسيطة من هذه المعلومات الدالة على عظمة الخالق وحكمته وهدايته: فقد نرى الأسماك في أشكالها وطعومها، فمنها ثلثية، ومنها ذات بيوض: ولها ألوان مختلفة، وأشكال مختلفة، وأحجام متباينة؛ فمنها صغير كالسردين، ومنها أسماك لا تصل إحداها كيلوغراماً واحداً، ومنها أسماك تبلغ أوزان الكيلوات القليلة، ومنها ذات أوزان كبيرة، ومنها حيثان يبلغ طولها عشرات

الأمطار، وتبلغ أوزانها مئات الأطنان. فعلى سبيل المثال فقد اصطاد الأسطول الياباني سنة ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف حوتاً من نوع الكبريت، وهو أثنى بلغ طولها سبعة وعشرين متراً، وبلغ وزنها مائة وخمسة وثلاثين طناً رغم أنها لم تكن سمينة، وكان وزن لسانها فقط ألفين وستمائة وستة وستين كيلوغراماً، وكان وزن كبدها ثمانمائة وتسعة وثمانين كيلوغراماً، وكان وزن قلبها أربعمائة وعشرين كيلو غراماً، وبيعت بثمانية وعشرين ألف دولار، وقد استخرجوا منها زيتاً قيمته عشرة آلاف دولار، وقيمة لحمها ثمانية عشر ألف دولار^(١).

أما أنواع الأسماك فهي أكثر من أن تحصى فمنها على سبيل المثال: سلاحف البحر، وطيور البحر، ولها أجنحة وتطير فوق سطح البحر، ولها أجنحة كالطيور، وفيها عمار البحر، وسرطاناتها وفيها قمام أو زبال البحر يتغذى على أوساخ السمك وفضلاته لينقي البيئة البحرية، وفيها كلب البحر، والبقر البحري، وحمار الوحش البحري، والجمبري وإسفنج البحر، وديدان البحر، والحيتان الضخمة الكبيرة، وحمام البحر، ولحم البحر وأوز البحر وجراد البحر، والسمك العذراء، والقناور، وصدفة المحار وحلما تتمتع بانبثاق ثلاثين عينا، كل عين منها تشبه تركيب عين الإنسان، ومنها حيتان، الحوت الواحد فيه كأن رأسه قمة جبل قد برز من الجليد، ومنها سباع البحر، والدراويل وقيلة البحر.

أما خلقة الأسماك وهندسة شكلها وتصميم أجسامها، فجاءت قدرة الله الصانع لها، فقد صممها بحيث تستطيع التغلب على جاذبية الماء لها، وجعلها قادرة على التغلب على سحب الماء لها مهما بلغت أوزانها، فإنها تستطيع مقاومة الضغط المائي حتى لو بلغ ملايين الأطنان، بحيث تصل سرعة بعض هذه الأسماك ثمانين كيلو متراً في الساعة كسمك المارلين الأزرق. فأجسام السمك ذات شكل زلق

(١) ابن خليفة عليوي، سبعون برهاناً، ص ٣٠٤.

يستطيع أن يشق طريقه في الماء كالطير يشق طريقه في الهواء، وتستطيع السمكة أن تسبح في الماء، وجسمها تحت الماء ورأسها يرتفع فوقه لأخذ الأكسجين ثم تخزنه في خزان كبير. وللأسماك زعانف من أجل التوازن كأجنحة الطيور في الهواء وتستعملها كلفاف لتوجيه الحركة وككوابح للوقوف، ولها مراكز على جانبي جسمها حساسة للضغط والصوت تساعد على تغير حركتها إذا ما شعرت بالخطر، ولها أكياس توازن وهي منتجات داخلية مبطنة بشعر دقيق وبدخلها جسيمات حيوية للتنبه في الظلام على مستوى ارتفاعها في الماء. وكذلك فلهذه المخلوقات أصوات في البحر، فلا تصدق أن البحر ساكن وهادئ فكما هو مليء بالحركة والنشاط فهو مليء بالأصوات، ولقد سمعت تلك الأصوات للأسماك وسجلت فستطيع أن تسمع مواء غريباً، وتغويلاً وصراخاً، ولولة، ونواحاً خفيفاً، وتغريداً أشبه بالغناء، وأصوات عصافير، وأصواتاً مختلفة^(١). نعم إنه: ﴿شَنَّعَ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّاهُمْ خَيْرٌ بِمَا فَعَعَلُوا﴾. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّلٍ قِيَتُهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥] ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ بَلِ الْغَالِبُونَ فِي صَكَلِ ثِينِ ﴿[نعمان: ١١].

نعم إنها آية الدالة على عظمة خلقه وهي لا تحصى ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ عَائِيهِمْ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

(١) انظر المرجع السابق، ص ٣٠٢.

اللؤلؤ والمرجان آيات دالة

على عظمة الخالق سبحانه وتعالى

يقول الله سبحانه وتعالى: مذكراً الإنسان بنعمة من نعمه في البحار والأنهار، وهي نعمة ما يتخذها الإنسان من زينة مستخرجة من البحار والأنهار، وهي نعمة اللؤلؤ والمرجان. فما قصة هذين الصنفين من الزينة، وكيف يخلقهما الله سبحانه، وكيف يكشف العلم عظمة الخلق بعد أن أشار إلى ذلك القرآن وقبل وصول العلم إلى ذلك؟ ولنقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١) يَنْتَهِيَا بَرَجًا (٢) لَا يَتَّبِعَانِ (٣) فَيَأْتِي مَاءَهُمَا مَرْجًا مَدِينًا (٤) وَخَرَجَ مِنْهَا الْكَلْبَانِ (٥) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٦) فَيَأْتِي مَاءَهُمَا رَيْكًا مَكْذِبَانِ (٧)﴾ [درهم: ١٩ - ٢٣]. وثمة آراء علماء البحار في تكون هذين النوعين من الأحجار الثمينة جداً^(١)، مما يدل على أنها آيات دالة على عظمة الخالق سبحانه، وقد توصل العلماء بعد ملايين السنين إلى عجائب قدرة الله في تكوينهما يقول (سموندس في كتابه عجائب البحار): «وما زلت عند حدّ قولي في خطابي الذي لفظته على أعضاء جمعية الفنون منذ بضع سنين من أننا ما برحنا لجهل أموراً شتى عظيمة الأهمية من حيث نسبتها إلى توليد هذه المادة البليغة، واستخراجها، والقليل الذي نعرفه عنها، يللنا على أن نمو المرجان سريع جداً وأن تقلده بسيط، وأنه يَأْلَفُ الأحوال مهما تباينت، وأن الفكة المنفصلة عن جذعه أو عن جرثومته المنفصلة لا تخلو من الحياة، بل تختار من تلقاء نفسها مادة أخرى ثابتة... وأنت إذا ألقيت إلى البحر شيئاً وكان إلى جواره المرجان لا تمضي على ذلك الشيء بضعة

(١) تفاصيل هذه المعلومات منقولة عن ابن خليفة عيوى، سبعون برهناً، البرهان الثامن والأربعون، ص ٢٧٨ - ٢٨٣.

شهور إلا وتجدده مغطى بالمرجان^(١). فالمرجان حيوان على شكل شجرة نباتية لها جذع وساق وأغصان. ولا تستغرب إذا رأيت هذه الشجرة الصلبة الحجرية بألوانها الصفراء البرتقالية، أو الحمراء القرنفلية أو الزرقاء الوردية، أو الحمراء اللحمية أنها في بدم أمرها من بيضة حيوانية خلقها الله تعالى لتصبح حيواناً مسؤولاً عن هذا الشكل المرجاني الذي قد تصل في أعماق البحار صخوراً كبيرة تشكل حاجزاً عظيماً بالقرب من ساحل أستراليا، تمتد ألفاً ومائتين وستين ميلاً طولاً، والواصلة إلى عمق ثمانية آلاف قدم، والتي يبلغ اتساعها ليصل إلى ما بين سبعة أمتار إلى مائة متر، كلها من صنع هذا الحيوان الضئيل وهو المرجان.

ويبرز المرجان مادة البحر أو الكلس الذي يتحول في النهاية إلى الكورالين، وهذا أحد صخور الحجر الجيري، يعيش على شكل مستعمرات في البحار، وسلاسل صخرية نامية يومياً، حيث يتكاثر بإنبات براعم تنضج لتصبح مرجاناً جليداً؛ حيث يصبح على شكل شجرة ذات فروع نابضة على الصخر، وجسمه مادة صخرية حمراء يغطيها كساء لحمي تتفرع منه أجسام أنبوية، تنتهي أطرافها بغم حوله ثمانية بحاس- أي شعيرات وأطراف دقيقة جداً يجس بها- وتراها بعينك المجردة تتحرك، فهي أحياء أنبوية مستقلة في تركيبها لكنها متحدة في الكساء العام اللحمي، وهي التي تصنع المادة الحمراء الثمينة المعروفة بالمرجان الرائع الجمال، والذي يتخذ الإنسان زينة.

أما اللؤلؤ فذاك آية ربانية بحرية أخرى، تراه مادة صلبة رائعة اللمعان، حجارة جذابة، ثمينة أثمن من الذهب، يحلّي بها الذهب، ويؤزّن بحجارة صغيرة منها، فتزيده جماله جمالاً، وبهاء لمعاناً. وهل تعلم أن هذه اللؤلؤة مؤلفة من أصداف من مادة كربون الكالسيوم مع قليل من المادة الحيوانية والأصداف، تتولد داخل الصخور، وهي دقيقة الحجم ثم تكبر بما تفرزه المياه من مواد حيّة ومعادن تتألف

(١) ابن خليفة عابدي، سيعون برهناً، ص ٢٧٨.

فيما بينها تألف الحيوان المنوي مع البويضة لتصنع منها اللؤلؤة.

ولكلما نمت الصلقة نمت المادة العجيبة المفرزة التي تعرف باللؤلؤ. وهذه الصلقة أو الحمار في عمره من الخامسة إلى السادسة يكون اللؤلؤ الذي فيه ثميناً أكثر من عمرها قبل ذلك، أما إذا عاش الحمار إلى السنة السابعة تضاعف ثمن اللؤلؤة. ولا بد من استخراج اللؤلؤ في الوقت المناسب، فإذا أخرج قبل وقته لم يكن كاملاً وإذا أهمل كثيراً مات الحلزون وذهب اللؤلؤ. فسبحان من خلق ونظم ووقت. فكأنها الجنين إذا خرج قبل وقته مات، وإذا تأخر في بطن أمه عن وقته المعروف هلك أيضاً.

ويصف بعض العلماء كيفية تكون اللؤلؤ، فيقول: تتكون اللؤلؤة في أنواع خاصة من المحارات وهي محارات اللؤلؤ، فإذا دخلت دودة أو حبيبة رمل أو أي شيء غريب بين جسم الحمار وصلفته، تهيج المحار كي يتخلص من الغريب، وأفرز غلالة لؤلؤية حوله لتخفف تهيجه، وتلك الغلالة مكونة من كربونات الكالسيوم، ويستمر تهيج المحار وإفراز المادة اللؤلؤية حتى الموت، وإذا لم تمت يلفظ اللؤلؤة أو يغوص في قاع البحر. فسبحان من خلقه وهماه.

ولقد أشار القرآن إلى أن اللؤلؤ والمرجان موجودان في البحيرات العذبة كما هو في البحار المالحة خلافاً لما كان يعتقد الناس أنه يتكون في البحار فقط، مما اكتشف العلماء أخيراً وفي القرن السادس عشر أنه موجود في الأنهار أيضاً، بينما ذكر القرآن قبل ذلك بقرون هذه الحقيقة فقال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١﴾ وَالْبَحْرَانِ: بَحْرٌ عَذْبٌ وَمَحْرٌ، مَالِحٌ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي وَصْفِ الْمَائَتَيْنِ، مَاءَ الْبَحْرِ وَمَاءَ الْأَنْهَارِ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ مَسَالِحٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلًا تَلْبَسُونَهَا وَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَلِجٌ لِيَنْفَعُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

النحل آية دالة على عظمة الخالق سبحانه

يقول الحق سبحانه ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بَطُونٍهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩].

النحل مخلوق مهتد بهداية الخالق^(١)، لصنع غذاء عظيم وصيللية مليئة بالأدوية الغذائية والوقائية والعلاجية، إنه العسل.

وقد ذكره النبي ﷺ شفاء ودواء كما جاء في الحديث الصحيح من رواية الشيخين البخاري ومسلم ولما جاءه رجل يشكو له من إسهال شديد حصل لأخ له قال النبي ﷺ «اسقه عسلاً» ففعل ثم عاد ليشتكو للنبي ﷺ بأن إسهاله قد زاد، فكرره له مرة أخرى، ثم فعل الرجل ثم عاد ثالثة فذكر له ما ذكر من قبل فقال له النبي ﷺ «اسقه عسلاً» صدق الله وكذب بطن أخيك» ففعل الرجل، مرة ثالثة فتوقف الإسهال، وشفي الرجل. نعم صدق الله القائل (فيه شفاء للناس).

وأما تفاصيل العلم، علم الأدوية والطب والتجميل والتغذية، فنقول هذه العلوم في كتبها ما يصنع موسوعة ضخمة وكبيرة في العسل، مما يجعلنا نمتنع النظر في كل كلمة من آياتي السورة التي حملت اسم النحل المهتدي لصناعة العسل بهدي ربنا سبحانه القائل: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَلْطَفَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

فسبحان الله هدى النحل أن يصنع عسلاً، بينما هدى دودة القز أن تصنع حريراً، وهدى حشرة أخرى أن تصنع مناً تتغذى عليه مخلوقات أخرى. وهدى

(١) انظر تفاصيل دقيقة دالة على عظمة الخلق سبحانه في أسرار النحل وإلهام الله له، وتنظيماته وأقسامه وتكاثره. وصناعاته للشمع ومواد التخييط وخلائجه وسكناته وتعامله مع الرحيق وكيفية صنعه للعسل... في كتاب سبعون برهاناً علمياً لابن خليفة عيسى، ص ٥١، البرهان السبعون، ص ٤١٥ - ٤٣٣.

مخلوقات أن تصنع لبناً، يتغذى عليه الإنسان... وهكذا كل ذلك هداية من الله عبر عنها القرآن بأنها وحي بقوله (وأوحى) ويبدو أن الوحي كله فيه خير، فالوحي للنحل أن يصنع العسل الشفاء، والوحي للأنبياء بالرسالات لما فيها من شفاء للبشرية من كل أمراضها العقلية والاجتماعية والتشريعية والأخلاقية، ولما فيه خيرها وسعادتها وعافيتها في دنياها وآخرتها.

والله سبحانه يوحى إلى النحل إلى تنوع أماكن سكنها لتصنع العسل من بيئاتها، متدرجاً معها بحسب تلك البيئات، بما يؤثر على مستوى نوعية العسل الذي تضعه من الأعلى إلى الذي هو أدنى إلى الذي هو أقل حسب ما وصل إليه العلم؛ حيث نوع أماكن السكن لها إما الجبال وإما الشجر وإما العرائش.

وثبت علمياً أن العسل الجبلي هو أعلى أنواع العسل جودة، وأكثرها دقة عالية في مواصفاته العلاجية من أي من أصناف العسل الأخرى، يتلوه العسل المصنع من الخلايا التي تكون مساكن النحل فيها في المناطق الشجرية، يتلوه بدرجة أقل العسل المصنع من النحل الذي يسكن في المعرشات؛ ذلك لأن ما يأكله النحل ويتغذى عليه من الرحيق يختلف في النباتات البرية الجبلية عنه في النوع من الأشجار من حمضيات وغيرها، يختلف عن غيره في النباتات غير الشجرية، وغير البرية في المعرشات.

وبهذا التدرج في النوعية جاء الترتيب لبيوت النحل. وبهذا تعرف عظمة الخالق بما خلق وهدى، وبما وصف ولفظ النظر إليه من دلائل عظمته لقوم يتفكرون.

ثم تعال معي في الآية الكريمة التي يأمر الله فيها أمر هداية النحل بأن تأكل من كل الثمرات لتصنع العسل. وفيه هذا المزج أو التركيب لكل ما في رحيق تلك النباتات أو الثمار من الفوائد ومن الخصائص الغذائية والخصائص العلاجية، وأمرها أن تسلك سبل ربها ذللاً، أي أن تسير في طيراتها باحثة ومعملة بالرحيق

والمواد التي تجهزها لتصنع العسل، في طرق سهلة مثلثة بحيث تباعد عن المطبات الهوائية والمناطق الموبوءة بيئياً، والوعرة، والمغبرة، والملوثة من أجل الحفاظ على نقاء المواد الخام للتصنيع، وللعمل على راحة النحلة وعدم إجهاده وعدم تعرضها للأمراض لتكون معافاة عند تصنيعها ولتكون موادها نقية عند تصنيعها.

وقد أثبت العلم أن النحل يطير بهداية عجيبة؛ إذ أن له مسارات في الهوام وقانوناً في الطيران أدق من مسارات الطيران للطائرات الموجهة إلكترونياً لسلامة الطائرات وسلامة ركابها.

كل ذلك مما أدهش الباحثين كيف أن ذلك قد أشار إليه القرآن قبل أربعة عشر قرناً حين ذكر أن الله أوحى للنحل بهذه الأوامر والهدايات كما في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] فسبحان الخالق وسبحان الهادي.

العسل صيدلية وآية شفاء دالة على عظمة الخالق

إننا نجد في خلق الله سبحانه أدلة على عظمته، ولجد ما في مخلوقاته من حكم وفوائد دالة على وجوده وعلمه وحكمته. فتعالوا معي إلى هذه الصيدلية التي تحوي مجموعة كبيرة من الأدوية ولكنها على كثرتها وكثرة استعمالها وكثرة الأمراض التي جعلها شفاء لها، تجتمع في علاج واحد، ليس فيه مرارة الدواء ولا صعوبة التحضير، ولا بشرية التصنيع إلا في طرق الاستعمال، وليس صعباً في تهجيته ولا في مصطلحه فهو في كلمة واحدة من ثلاثة حروف، أولها يسيرة سلسلة النطق يبدأ من الشعور بالعلة والمرض فبدايته حرف العين لمن يعاني، ووسطه حرف سين ليدل على سهولته وسهولة استعماله وسهولة الشفاء منه بإذن الله، وآخره حرف لام دال على الراحة والهدوء، مشعر بالحمد لله على السلامة ويبدأ باللام في استشعار عظمة توحيد الخالق حين يقول لا إله إلا الله.

أندرون معي ما هذا العلاج الواحد اليسير البسيط السهل الطيب، الحلو الذي يجمع صيدلية كبيرة في مجموعة أدويتها واستشفاءاتها إنه عسل ذكره ربنا وصنعه بحكمته من حشرة ذات ثلاث حروف فقط أيضاً إنه لحل بكل ما للفظ النحل من الهبة والمنح والعطاء ولنقرأ قول الخالق الباري سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَّ الْفَرْسَ مِنَ الْبَيْتِ وَنَافِلَتِ الْفَرْسُ وَمَا يَتَرَشَّدُ ۚ ثُمَّ كَلَّمَ الْفَرْسَ فَأَنشَأَ مِنْهُ دَلَّالًا يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]. ما هذه الآية التي يدعوننا الله لتفكر فيها، وإذا هي مليئة بالآيات والدلائل على عظمته، فهي آية مليئة بالآيات، وهو نوع واحد من الأطعمة أو الشراب مليء بالأدوية والشفاء لكثير من الأمراض.

تعالوا نسمع ما للعسل هذا الذي وصفه خالقنا وخالقه وخالق النحل،

وخالق مواده الخام الأولى النباتات ورحيقها، وخالق الأمراض، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾. وتعالوا نعلم ماله من فعالية بإذن ربنا في شفاء كثير من الأمراض، وفوائده في كثير من الاستعمالات لمختلف أعضاء الجسم بحيث لا تجد أعضاء في الجسم داخلها أو خارجها إلا وله فيه خير غذاء، وخير دواء.

وهو وحده من الأدوية التي تجتمع فيه الغذاء والدواء، كما تجتمع فيه الوقاية والعلاج، وهو الوحيد الذي لم يسجل له التأثيرات الجانبية المضرة للجسم، فكيف وقد سماه الله شفاء فقال: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو نكرة، والناس معرفة، فهو شفاء يستغرق كل أفراد الناس كما يستغرق كل أمراض الناس.

ولعل هذا السر فيما نطق رسولنا ﷺ بحقه من وحي ربه في سنته المكمل لوحى ربه قرآناً إذ قال فيما صح عنه عند البخاري عن ابن عباس: "الشفاء في ثلاثة شرطة معجم، أو شربة عسل أو كية بنار، وأنهى أمي عن الكي".

وعن ابن ماجة فيما يرويه ابن مسعود قوله ﷺ: «عليكم بالشفائين العسل والقرآن».

أما ما أثبتت تجارب علماء الأدوية والطب من فوائد واستطبابات بالعسل فهو أكثر من يستوعبه كتاب، بل مئات الكتب؛ ففي ذلك مجلدات من الكتب في مختلف دوائر الأبحاث الغذائية والصيدلانية والطبية حتى عثرت على الكتاب لرئيسة جمعية أبحاث النحل البريطانية إيفا كرين Iva Crane في ستمائة صفحة تقريباً عنوان Honey العسل تقول في آخره: وهنا ونظراً لأن العسل يفيد على نطاق واسع وغير مؤذ، فإنه يحق لنا بكل تأكيد أن ننهي هذا الفصل بالتعبير من السورة السادسة عشرة (١٦) من القرآن حينما يتكلم عن العسل أنه (فيه شفاء للناس). [وهذه المعلومة منقولة عن كتاب الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم الذي بدوره نقل المعلومة عن كتاب العسل للدكتور محمد نزار الدقر].

العسل نعمة غذاء ووقاية وشفاء

ومع آيات عظمة الخالق سبحانه مرة ثالثة في وصفه لما هدى الله النحل من اتخاذ البيوت والشجر والمعششات، والأكل من كل الثمرات والسير في سبل منللة لتصنع العسل، ويصف الله هذا العسل بأنه شراب فيه شفاء للناس.

فما هذه الثروة الغذائية وهذه الطبية الوقائية والعلاجية بحيث لا تجد مثلها في الغذاء ما يجمع بين كونه تغذية ووقاية وعلاجاً؟!.

أما أنه غذاء: فهو من أشهر الأغذية وأحلاها، سكريات غير كيماوية، ولا دخل للإنسان في زراعتها، ولا في تصنيعها ولا في طبخها. إذ فيها سكر لا يؤذي الجسم بل يعطيه الطاقة المتوازنة، وفيه الفيتامينات الضرورية للجسم مثل فيتامين ب٢، ب٦، ومحمض الفوليك، وفيتامين ك، وكلها لها دور أساسي في التمثيل الغذائي، وصنع الدم وإيجاد النشاط العام للجسم. ويحتوي على سعرات حرارية عالية لازمة للطاقة وخصوصاً في البلاد الباردة.

وفي العسل فوائد غذائية يعجز الإنسان عن وصفها لكثرتها وأهميتها.

أما أنه وقائي: ويقولون درهم وقاية خير من قنطار علاج، فقد أثبتت الدراسات العلمية ونتائج التجارب الطبية مثلاً أن إعطاء العسل لمرضى البول السكري له تأثير جيد على سير المرض مع الحمية اللازمة لمرضى السكري.

كما ثبت أن العسل للأطفال يقي أسنانهم من التعرض للتسوس والتخر، ويحميها من تكاثر الجراثيم، ويعمل على تثبيت الكلس في العظام والأسنان، وله أثره في نمو العظام نمواً طبيعياً، في حين أن السكر العادي والحلويات تساعد على تسوس الأسنان وتساعد على نمو الجراثيم والبكتيريا الضارة. كما أنه يساعد على

بناء الجهاز المناعي للإنسان المقاوم للأمراض. فعند الأطفال يجنبهم الإصابة بالأمراض الجرثومية والتعفنات المعوية الناتجة عن الدوزنتاريا والإسهال المتكرر، كما يزيد من النمو المتوازن للأطفال وتصنيع كريات الدم الحمراء، ويقيهم من أمراض سوء التغذية والإمساك وانتفاخات البطن بالغازات المؤلمة واضطرابات القولون، كما يساعد على ظهور الأسنان ونمو الكلس في العظام.

أما في الكبار فهو يزيد من مناعتهم ضد أمراض السرطان، ومن الشيخوخة المبكرة، ومن الشعور بالوهن والضعف والخرف والحطاط الجسم والوهن العصبي وهو مريح نفسي يعد بمثابة المهلثات المريحة لنفسية الإنسان.

كما أنه يقي الأجسام من أعراض التسمم الناشئة عن التعرض للأشعة الضارة. ومن النزيف لما فيه من فيتامين ك.

أما في استعمالاته العلاجية فهي أكثر من أن تُحصى فمنها:

ما توصل إليه علماء الدواء والتصنيع محاليل عسلية خاصة لحفظ العظام وقرنية العين لاستعمالها في جراحات التطعيم والترميم.

كما توصلوا إلى أن العسل علاج للثعلبة والشيب، وأنه يجدد خلايا الجلد عند الشيخوخة. وهو مستحضر طبي واقٍ في طب التجميل الوقائي والعلاجي للجلد وأمراضه. كما هو معالج ممتاز للجروح والقروح والتعفنات الجلدية لما فيه من المضادات الحيوية، ومن خاصية العزل للمنطقة المصابة عن الهواء الخارجي الملوث بالميكروبات والجراثيم التي تُبطئ من التئام الجروح وتساعد على تلوثها.

وهناك مراهم مصنوعة من العسل، وحقن عسلية تستعمل بعد العمليات الجراحية لمساعدة الجروح على الالتئام ولتقيها الجراثيم والالتهابات.

كما صنعوا منه غلداً آمناً للتخلير عند العمليات الجراحية لتجنب ما يسببه

البنج المخدر من اضطرابات قلبية ودورانية وخلل في الدورة الدموية، وخصوصاً لمن يعانون من أمراض القلب والضغط والحساسية والربو.

وهو أيضاً وبخاصة الجبلي منه معالج ناجح وسريع لأمراض الحساسية والربو على وجه الخصوص، كما ثبتت فعاليته العلاجية في التهاب المجاري البولية والأمراض التناسلية والسعال وأمراض الأنف والحنجرة والعين والجهاز الهضمي وأمراض الدم والقلب والكلى.

نعم إنه غذاء ووقاية وعلاج وعناية كاملة في كلام ربنا سبحانه: ﴿يَبْرِئُ شِفَاءً﴾ لِلنَّاسِ ﴿خَلَقَهُ اللَّهُ وَسَمَّاها عَسلاً ووصفه شفاء. فسبحان من خلق وهدى، وأطعم وسقى، ووقى وشافى وعافى. سبحان الله العظيم وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، وملاد كلماته.

والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

٥	المقدمة
٧	الإيمان بالله والدعوة لتوحيده
٩	الإيمان بوجود الله
١١	أدله على وجوده سبحانه
١٣	من الله إلى الكون
١٦	الوعي الفطري دليل على وجود الله
١٩	الحاجة إلى الله دالة على وجود الله
٢١	جواب الفطرة / الله الخالق
٢٤	الأدلة العقلية على وجود الله سبحانه
٢٦	دليل الخلق ورفض المصادفة
٢٨	دليل الخلق
٣١	الخالق يغير ولا يتغير
٣٤	دليل النظام
٣٧	العقل والحس والدلالة على الله تعالى
٤٠	الأدلة العلمية على وجود الله
٤٤	الأدلة العلمية على وجود الله / الذرة والشمس
٤٦	الأدلة العلمية على وجود الله / دقة الخلق
٥٠	الأدلة العلمية على وجود الله / الشمس والقمر
٥٣	الأدلة العلمية على وجود الله / آية الليل والنهار ١
٥٦	الأدلة العلمية على وجود الله / آية الليل والنهار ٢
٥٩	الأدلة العلمية على وجود الله / السماء
٦٢	الهداية في المخلوقات دالة على الله
٦٥	الحكمة الدالة على عظمة الخالق سبحانه
٦٨	العدالة في توزيع المخلوقات على الأرض دليل

- ٧١ النوم آية دالة على عظمة الخالق
- ٧٤ السير في الأرض آية دالة على عظمة الخالق سبحانه
- ٧٧ آية خلق الإنسان من طين
- أطوار خلق الإنسان آيات دالة على الخالق/ العلقة
- ٨٠ والقرار المكين
- من أطوار خلق الإنسان الدالة على عظمة الخالق/ من
- المضغة إلى الولادة
- ٨٣ أعصاب الجلد دالة على عظمة الله
- ٨٦ ترتيب الخواص في القرآن دال على عظمة الخالق
- ٩٠ بين السمع والبصر ومعرفة الله في القرآن
- ٩٢ حكمة تقديم السمع على البصر في القرآن
- ٩٥ الشمس آية دالة على الخالق
- ١٠٠ الخليلد آية دالة على عظمة الخالق
- ١٠٣ البحار آية دالة على الخالق سبحانه
- ١٠٥ ظلمات البحر آية دالة على الله
- ١٠٨ ملوحة المياه وعذوبتها آيات دالة على الله
- ١١١ عجائب مخلوقات البحر دالة على عظمة الله
- ١١٤ اللؤلؤ والمرجان آيات دالة على عظمة الخالق سبحانه ..
- ١١٧ النحل آية دالة على عظمة الخالق سبحانه
- ١٢٠ العسل صيدلية وآية شفاء دالة على عظمة الخالق
- ١٢٣ العسل نعمة غذاء ووقاية وشفاء
- ١٢٥ الفهرس
- ١٢٧